الفصل الثاني

بيعة معاوية وأهم صفاته ونظام حكمه

المبحث الأول

بيعة معاوية وأهم صفاته وثناء العلماء عليه

أولاً: بيعة معاوية ﷺ :

بتنازل الحسن بن علي ﷺ اكتملت عوامل تولي معاوية الخلافة، وتهيأت له جميع أسبابها، فبويع أميراً للمؤمنين عام واحد وأربعين للهجرة وسمي هذا العام بعام الجماعة[1]، وسجل في ذاكرة الأمه عام الجماعة وأصبح هذا الحدث من مفاخرها التي تزهو به على مر العصور، وتوالي الدهور، فقد التقت الأمة على زعامة معاوية، ورضيت به أميراً عليها، وابتهج خيار المسلمين بهذه الوحدة الجامعة، بعد الفرقة المشتة، وكان الفضل في ذلك لله ثم للسيد الكبير مهندس المشروع الإصلاحي العظيم الحسن بن علي بن أبي طالب، ويعد عام الجماعة من علامة نبوة المصطفى ﷺ وفضيلة باهرة من فضائل الحسن، ولا يلتفت إلى ما قال العقاد من فهم غير صحيح عن عام الجماعة في هجومه الخاطىء على المؤرخين الذين سموا سنة إحدى وأربعين هجرية بعام الجماعة، فقد قال: فليس أضل ضلال، ولا أجهل جهلاً من المؤرخين الذين سموا سنة إحدى وأربعين هجرية بعام الجماعة لأنها السنة التي استأثر فيها معاوية بالخلافة فلم يشاركه أحد فيها، لأن صدر الإسلام لم يعرف سنة تفرقت فيها الأمة كما تفرقت في تلك السنة، ووقع فيها الشتات بين كل فئة من فئاتها كما وقع فيها[2]، والعقاد ﷺ لم يأت بجديد في حكمه الخاطىء بل سبقه إليه كثير من مؤرخي الشيعة، ويكفي معاوية فخراً أن كل الصحابة الأحياء في عهده بايعوه، فقد أجمعت الأمة على معاوية وبايعه علماء الصحابة والتابعين وعدّوا خلافته شرعية ورضوا إمامته، ورأوا أنه خير من يلي أمر المسلمين ويقوم به خير قيام في تلك المرحلة، فروي عن الأوزاعي أنه قال: أدركت خلافة معاوية عدة

---

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 137)، تاريخ خليفة: ص: 203.

(2) معاوية بن أبي سفيان للعقاد، ص: 25.

من أصحاب رسول الله ﷺ منهم: سعد، وأسامة، وجابر، وابن عمر، وزيد بن ثابت، ومسلمة بن مخلد، وأبوسعيد الخدري، ورافع بن خديج، وأبو أمامة، وأنس بن مالك، ورجال أكثر مما سميت بأضعاف مضاعفة، كانوا مصابيح الهدى، وأوعية العلم. حضروا من الكتاب تنزيله، وأخذوا عن رسول الله ﷺ تأويله، ومن التابعين لهم بإحسان إن شاء الله، منهم: المسور بن مخرمة، وعبد الرحمٰن بن الأسود بن عبد يغوث، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعبد الله بن محيريز في أشباه له، لم ينزعوا يده عن مجامعة في أمة محمد ﷺ[1]. وقال ابن حزم: فبويع الحسن ثم سلّم الأمر إلى معاوية، وفي بقايا الصحابة من هو أفضل منهما بلا خلاف ممن أنفق قبل الفتح وقاتل، وكلهم أولهم عن آخرهم بايع معاوية، ورأى إمامته[2]. فالصحابة لم يبايعوا معاوية ﷺ إلا وقد رأوا فيه شروط الإمامة متوفرة، ومنها العدالة، فمن يطعن في عدالة معاوية وإمامته فقد طعن في عدالة هؤلاء الصحابة جميعهم وخونّهم وتنقصهم. فمن رضيه هؤلاء لدينهم ودنياهم ألا نقبله ونرضى به نحن؟ ومن قال لعلهم بايعوا خوفاً فقد اتهمهم بالجبن وعدم الصدع بالحق، وهم القوم المعلوم من سيرتهم الشجاعة والشهامة وعدم الخوف في الله لومة لائم[3].

وفي مبايعة سبط رسول الله ﷺ الحسن بن علي لمعاوية درس بليغ وفهم عميق لآيات النهي عن الاختلاق، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153]. فالصراط المستقيم هو: القرآن والإسلام والفطرة التي فطر الناس عليها، والسبل هي: الأهواء، والفرق، والبدع، والمحدثات، قال مجاهد: ولا تتبعوا السبل: يعني! البدع، والشبهات والضلالات[4]، ونهى الله ﷻ هذه الأمة عما وقعت فيه الأمم السابقة من الاختلاف والتفرق من بعد ما جاءتهم البيانات، وأنزل الله إليهم الكتب، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 105]. وقد أمر الله تعالى بالاعتصام بحبله، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: 103] لقد تحقق بفضل الله تعالى ثم بنجاح الحسن بن علي في صلحه مع معاوية مقصد عظيم من مقاصد الشريعة من وحدة المسلمين واجتماعهم وهذا المقصد من أهم أسباب التمكين لدين الله تعالى ونحن مأمورون بالتواصي بالحقّ والتواصي بالصبر، فلا بدّ من تضافر الجهود بين الدعاة، وقادة الحركات الإسلامية،

(1) البداية والنهاية (11/ 434، 435).
(2) الفصل في الملل والنحل (5/ 6).
(3) من سب الصحابة ومعاوية فأمه هاوية، ص: 120.
(4) تفسير مجاهد، ص: 227، دراسات في الأهواء والفرق والبدع، ص: 49.

وبين علماء المسلمين، وطلبة العلم لإصلاح ذات البين إصلاحاً حقيقياً لا تلفيقياً، لأن أنصاف الحلول تفسد أكثر ممّا تصلح، وقد تحدث الشيخ السعدي على الجهاد المتعلّق بالمسلمين بقيام الألفة، واتفاق الكلمة وبعد أن ذكر الآيات، والأحاديث الدالّة على وجوب تعاون المسلمين ووحدتهم قال: فإن من أعظم الجهاد السَّعي في تأليف قلوب المسلمين، واجتماعهم على دينهم، ومصالحهم الدينية والدنيوية[1]. ولا ينظر للحديث الضعيف الذي رواه ابن عدي من طريق عليّ بن زيد، وهو ضعيف، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد ومن حديث مجالد[2]، وهو ضعيف أيضاً، عن أبي الوَدَّاك عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه**»[3]. أسنده أيضاً من طريق الحكم بن ظهير[4]، وهو متروك. وهذا الحديث كذب بلا شك، ولو كان صحيحاً لبادر الصحابة إلى فعل ذلك، لأنَّهم كانوا لا تأخذهم في الله لومة لائم[5].

1 - انتهاء عهد الخلافة الراشدة:

انتهى عهد الخلافة الراشدة على منهاج النبوة بتنازل الحسن بن علي لمعاوية ﷺ، فقد قال رسول الله ﷺ: «**تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عارضاً فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبرياً، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء ثم تكون خلافة على منهاج النبوة**»، ثم سكت[6]. وقد بين رسول الله ﷺ: «**خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله الملك، أو ملكه من يشاء**»[7]، وقوله ﷺ: «**الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك**»[8]. وإنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية في ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ، فإنه توفي في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، وهذا من دلائل النبوة صلوات الله وسلامه عليه وسلم تسليماً[9]، وبذلك تكون

(1) وجوب التعاون بين المسلمين، ص: 5.
(2) الكامل في الضعفاء (6/ 2416).
(3) البداية والنهاية (11/ 434) الكامل في الضعفاء (2/ 626).
(4) الكامل (2/ 626/ 627).
(5) البداية والنهاية (11/ 434).
(6) مسند أحمد (4/ 371 - 372) سلسلة الأحاديث الصحيحة.
(7) سنن أبي داود شرح عون المعبود (12/ 259) صحيح سنن الألباني (3/ 879).
(8) سنن الترمذي شرح تحفة الأحوذي (6/ 395 - 397) حديث حسن.
(9) البداية والنهاية (8/ 16).

مرحلة خلافة النبوة قد انتهت بتنازل الحسن ﷺ عن الخلافة لمعاوية في شهر ربيع الأول من سنة 41 هـ[1]، فالحديث النبوي الكريم أشار إلى مراحل تاريخية وهي:

أ ـ عهد النبوة.

ب ـ عهد الخلافة الراشدة.

جـ ـ عهد الملك العضوض[2].

هـ ـ عهد الملك الجبري.

و ـ ثم تكون خلافة على منهاج النبوة.

وقد بين رسول الله ﷺ بأنه ستكون خلافة نبوة ورحمة ثم يكون ملك ورحمة[3] ويجوز تسمية من بعد الخلفاء الراشدين خلفاء وإن كانوا ملوكاً، ولم يكونوا خلفاء الأنبياء بدليل ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «**كانت بنو إسرائيل يسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي، وستكون خلفاء فتكثر**، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «**وفوا بيعة الأول، فالأول، ثم أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم**»[4]. فقوله: «**فتكثر**» دليل على من سوى الراشدين فإنهم لم يكونوا كثيراً وأيضاً قوله: «**وفوا بيعة الأول فالأول**» دل على أنهم يختلفون، والراشدين لم يختلفوا، وقوله: «**فأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم**» دليل على مذهب أهل السنة، في إعطاء الأمراء حقهم من المال والمغنم[5]، فمعاوية ﷺ أفضل ملوك هذه الأمة، والذين كانوا قبله خلفاء نبوة، وأما هو فكانت خلافته ملك، وكان ملكه ملكاً ورحمة وكان في ملكه من الرحمة والحلم ونفع المسلمين، ما يعلم أنه كان خيراً من ملك غيره[6]، ومعاوية ﷺ كان عالماً ورعاً عدلاً دون الخلفاء الراشدين في العلم والورع والعدل، كما ترى من التفاوت بين الأولياء، بل الملائكة والأنبياء، فإمارته وإن كانت صحيحة بإجماع الصحابة وتسليم الحسن ﷺ إلا أنها ليست على منهاج خلافة من قبله، فإنه توسع في المباحات، وتحرز عنها الخلفاء الأربعة، وأما رجحان الخلفاء الأربعة في العبادات والمعاملات فظاهر مما لا سترة فيه[7]، وقد حدد

(1) مرويات خلافة معاوية، ص: 165.

(2) العضوض: الشديد فيه عسف وعنف وظلم.

(3) سنن الدارمي (2/ 114) الأشربة، الفتاوى (35/ 14).

(4) البخاري، رقم 3455.

(5) الفتاوى، (35/ 15).

(6) الفتاوى، (4/ 292).

(7) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، ص: 78.

ابن خلدون مدى التغير الذي حدث، فقدر أن الخلافة وإن كانت تحولت إلى ملك، فإن معاني الخلافة بقيت - بعضها - وإنما كان التغير في الوازع، فبعد أن كان ديناً انقلب عصبية وسيفاً: يقصد بذلك أنه بعد أن كان الناس يتصرفون بوازع الدين، والخلافة شورى، صار الحكم مستنداً إلى العصبية والقوة، ولكن معاني الخلافة أي مقاصدها وأهدافها بقيت، أي أن غايات هذا الملك كان لاتزال تحقيق مقاصد الدين والحكم وفق الشريعة الإسلامية بالعدل وتنفيذ الواجبات التي يأمر بها الإسلام: أي أن الحكم أو الملك استمر إسلامياً وشرعياً[1] ولخص الأدوار التي مرت بها الخلافة، فقال: فقد بين أن الخلافة قد وجدت بدون الملك أولاً، ثم التبست معانيها واختلطت بالملك، ثم انفرد الملك حيث افترقت عصبية الخلافة والله مقدر الليل والنهار[2]. فالدور الأول الذي يشير إليه هو عصر الخلفاء الراشدين وهو عصر الخلافة الخالصة أو الكاملة، والدور الثاني هو عصر الخلفاء الأمويين والعباسيين - ولا يمنع كذلك العثمانيين - وهذا عصر الخلافة المختلطة بالملك أو الملك المختلط بالخلافة: أي الذي يحقق في الوقت مقاصد الخلافة، أما الدور الثالث فهو عصر الملك المحض الذي صار يقصد لذات الملك والأغراض الدنيوية، وانفصل عن حقيقة الخلافة أو معانيها الدينية، فهذا وصف أو تفسير ابن خلدون المؤرخ الفقيه للتطور الذي حدث والأدوار التي مرت بها الخلافة[3].

إن الخلافة الحقيقة أو الكاملة أو خلافة النبوة استمرت ثلاثين عاماً وهو عصر الخلفاء الراشدين ثم تحولت إلى ملك، ولكن لكي نعبر عن الحقيقة يجب أن يراعى هذا التحديد، وهو أن الخلافة لم تنته أو تذهب كلية، وإنما بقيت معانيها أو مقاصدها، وأن التغيير حصل في الأساس التي قامت عليه، أما حقيقتها فقد بقيت، فالتغير إذن لم يكن كلياً ولكن جزئياً: أي أن الخلافة في العصر الأول كانت هي الخلافة الكاملة المثالية، ثم نقصت عن المثال من وجه أو بعض الوجوه، لكن معظم عناصره بقيت، فهي خلافة أقل في الرتبة أو خلافة مختلطة بالملك[4]، والرأي العام في الإسلام يتمسك بالمثال، أو خلافة النبوة، أو الخلافة الكاملة، وهي تلك التي تقوم على الشورى والاختيار التام من الأمة وأنه إذا كانت الظروف الواقعية والعوامل الاجتماعية قد حتّمت أو أدت إلى هذا التطور، فإن تحمل ذلك أو قوله لا يكون إلا مؤقتاً أو من باب الضرورة، ولكن لايلزم أن يكون المثل الكامل حاضراً دائماً في فكر الرأي العام، وبمجرد أن تزول تلك العوامل والظروف تجب العودة إلى تحقيق المثل الكامل، ولذا

(1) النظريات السياسية للريس، ص: 194، نقلاً عن المقدمة لابن خلدون.
(2) النظريات السياسية، ص: 195.
(3) المصدر نفسه، ص: 195.
(4) المصدر نفسه، ص: 196.

فإن الكتابات الإسلامية الأصيلة ظلت ملتزمة ومتشبثة بالمثال الكامل ولا تستخلص مبادءها إلا منه وتفرق بين الخلافة وهي الخلافة الحقيقية الشرعية، والخلافة الواقعية التي بعدت قليلاً أو كثيراً عن الحقيقة[1]، وقد ذكر ابن تيمية: أن مصير الأمر - أي الخلافة - إلى الملوك ونوابهم من الولاة والقضاة الأمراء ليس لنقص فيهم فقط، بل لنقص في الراعي والرعية جميعاً، فإنه كما تكونوا يولّ عليكم وقد قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: 129]. لقد ذهبت دولة الخلفاء الراشدين، وصار ملكاً ظهر النقص في الأمراء، وكذلك في أهل العلم والدين وجمهور الصحابة انقرضوا بانقراض خلافة الخلفاء الأربعة، حتى إنه لم يبق من أهل بدر إلا نفر قليل، وجمهور التابعين بإحسان انقرضوا في أواخر عصر أصاغر الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبد الملك، وجمهور تابعي التابعين انقرضوا في أواخر الدولة الأموية، وأوائل الدولة العباسية[2].

2 - هل يعتبر معاوية رضي الله عنه أحد الخلفاء الاثني عشر؟

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه : دخلت مع أبي على النبي ﷺ، فسمعته يقول: «**إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة**»، قال: ثم تكلم بكلام خفي عليَّ، قال: فقلت لأبي: ما قال، قال: «**كلهم من قريش**»[3]، وفي رواية أخرى عن جابر: «**لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشرة خليفة.. كلهم من قريش**»[4] وفي رواية أخرى عنه: «**لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة.. كلهم من قريش**»[5]، زاد أبو داود في سننه، بإسناده عن جابر رضي الله عنه قال: فلما رجع إلى منزله أتته قريش فقالوا: ثم يكون الهرج[6]. وقد شرح ابن كثير هذا الحديث فقال: ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحاً يقيم الحق ويعدل فيهم، ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم، بل قد وجد منهم أربعة على نسق وهم الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، ومنهم عمر بن عبدالعزيز بلا شك عند الأئمة، وبعض بني العباس، ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة، والظاهر أن منهم المهدي المُسرّ به في الأحاديث الواردة بذكره.... وليس هذا بالمنتظر الذي تتوهم الرافضة وجوده ثم ظهوره من سرداب سامراء[7]، فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود بالكلية، بل هو من

(1) النظريات السياسية، ص: 197.
(2) الفتاوى (10/ 207).
(3) صحيح مسلم على شرح النووي (12/ 502).
(4) صحيح مسلم على شرح النووي (12/ 503).
(5) المصدر نفسه (12/ 203).
(6) صحيح سنن الألباني (3/ 807)، هرج الناس: وقعوا في فتنة واختلاط وقتل.
(7) سامراء : مدينة بين بغداد وتكريت على شرقي دجلة.

هوس العقول السخيفة وتوهم الخيالات الضعيفة، وليس المراد بهؤلاء الخلفاء الاثني عشر الأئمة الاثني عشرة الذين يعتقد فيهم الاثنا عشرية[1]. وبالتأمل في النص بكل حيدة وموضعية نجد أن هؤلاء الاثني عشر وصفوا بأنهم يتولون الخلافة، وأن الإسلام في عهدهم يكون في عزة ومنعة وأن الناس تجتمع عليهم ولا يزال أمر الناس ماضياً وصالحاً في عهدهم وكل هذا الأوصاف لا تنطبق على من تدعي الاثنا عشرية فيهم الإمامة فلم يتول الخلافة منهم إلا أمير المؤمنين علي والحسن[2]... ثم أنه ليس في الحديث حصر لأئمة بهذا العدد، بل نبوة منه، بأن الإسلام لا يزال عزيزاً في عصور هؤلاء، وكان عصر الخلفاء الراشدين وبني أمية عصر عزة ومنعة[3]، ولهذا قال ابن تيمية: إن الإسلام وشرائعه في بني أمية أظهر وأوسع مما كان بعدهم[4]، وعدّ معاوية من الأئمة المقصودين بالحديث[5].

ثانياً: أهم صفات معاوية ﷺ:

اشتهر معاوية ﷺ بصفات كثيرة من أهمها:

1 - العلم والفقه:

استفاد معاوية ﷺ من ملازمته لرسول الله ﷺ علماً وتربية، وقد روى عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة قد ذكرت بعضها، وقد روى له البخاري ومسلم مع شرطهما أن لا يرويان إلا عن ثقة ضابط صدوق[6] وشهد له ابن عباس بالفقه، فعن ابن أبي مليكة قال: قيل لابن عباس ﷺ: هل لك في أمير المؤمنين معاوية فإنّه ما أوتر إلا بواحدة؟ قال: أصاب إنه فقيه، رواه البخاري[7]. قال الشرّاح: أي مجتهد، وفي رواية أخرى للبخاري عن أبي مليكة قال: أوتر معاوية ﷺ بعد العشاء بركعة وعنده مولى لابن عباس ﷺ فأتى ابن عباس ﷺ قال: دَعْهُ فإنه صحب رسول الله ﷺ، وكان ابن عباس ﷺ من فضلاء الصحابة، ويُلقّب: البحر لسعة علمه، وحبر الأمة، وترجمان القرآن، وقد دعا له الرسول ﷺ بالعلم والحكمة والتأويل، فاستجيب وكان من خواص أصحاب علي ﷺ وشديد الإنكار على أعدائه، وأرسله علي ﷺ ليحاج الخوارج فحاجهم حتى لم يبق لهم حجة، فإذا شهد مثله لمعاوية بأنه مجتهد وكف مولاه عن الإنكار مستدلاً بأنه من الصحابة[8]. كما أنه كان كاتب رسول الله ﷺ وذكره مفتي الحرمين أحمد بن عبد الله بن محمد الطبري في خلاصة السير، إن كتّابه ﷺ ثلاثة

(1) تفسير ابن كثير (2/ 34).
(2) منهاج السنة (4/ 210) المتقى، ص: 533.
(3) أصول الشيعة (2/ 816).
(4) منهاج السنة (4/ 206).
(5) المصدر نفسه(4/ 206).
(6) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، ص: 41.
(7) البخاري، رقم: 3764، رقم 3765.
(8) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، ص: 41.

عشر: الخلفاء الأربعة وعامر بن فهيرة، وعبد الله بن أرقم، وأبيّ بن كعب، وثابت بن قيس بن شماس، وخالد بن سعيد بن العاص، وحنظلة بن الربيع الأسلمي، وزيد بن ثابت، ومعاوية ابن أبي سفيان، وشرحبيل ابن حسنة، وكان معاوية وزيد ألزمهم لذلك وأخصهم به[1]، كما أن الفقهاء يعتمدون على اجتهاده ويذكرون مذهبه كسائر الصحابة، كقولهم: ذهب معاذ بن جبل، ومعاوية وسعيد بن المسيب إلى أن المسلم يرث الكافر، وقولهم: روى[2] استلام الركنين اليمانيين عن الحسن أو الحسين وصح عن معاوية. وقال أبو الدرداء الصحابي لأهل الشام: ما رأيت أحد أشبه صلاة بصلاة رسول الله ﷺ من إمامكم هذا ـ يعني معاوية[3] ـ وكان رضي الله عنه حريصاً على تعليم الناس العلم، فعن أبي أمامة سهل بن حنيف قال: سمعت معاوية ابن أبي سفيان وهو جالس على المنبر أذن المؤذن قال: الله أكبر الله أكبر، قال معاوية: الله أكبر الله أكبر. قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال معاوية: وأنا، فقال: أشهد أن محمداً رسول الله، فقال معاوية: وأنا. فلما قضي التأذين قال: يا أيها الناس، إني سمعت رسول الله ﷺ على هذا المجلس ـ حين أذن المؤذن ـ يقول ما سمعتم مني من مقالتي[4]، وكان رضي الله عنه يحث الناس على الفقه في الدين ويروي لهم الأحاديث الدالة على أهمية التفقه في الدين، فعن الزهري قال: أخبرني حميد قال: سمعت معاوية بن أبي سفيان يخطب قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم، ويعطي الله، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة أو حتى يأتي أمر الله**»[5]، وكان رضي الله عنه يكاتب أصحاب الرسول ﷺ ليتعلم منهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ، فعن وراد مولى المغيرة بن شعبة قال: كتب معاوية إلى المغيرة: اكتب إلي ما سمعت النبي ﷺ يقول خلف الصلاة، فأملى علي المغيرة، قال: سمعت النبي ﷺ يقول خلف الصلاة: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، اللّهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**». وقال ابن جريج: أخبرني عدة أن وراداً أخبره بهذا. ثم وفدت بعد إلى معاوية فسمعته يأمر الناس بذلك القول[6]. وكان رضي الله عنه حريصاً على اتباع السنة النبوية، فعن سعيد بن المسيب، وعن حمد بن عبد الرحمٰن بن عوف: أن معاوية لما قدم المدينة في آخر مقدمة قدمها، قال على منبر رسول الله ﷺ: أين علماؤكم يا أهل المدينة؟ سمعت رسول الله ﷺ في هذا اليوم ـ يوم عاشوراء ـ يقول: «**من شاء منكم أن يصومه فليصمه**» وفي رواية: «**وإني صائم**»، فصام الناس[7]، قال: وسمعت رسول الله ﷺ: ينهى عن مثل هذا، وأخرج قصة من شعر من كمه،

(1) المصدر نفسه، ص: 41.
(2) المصدر نفسه، ص: 57.
(3) منهاج السنة (3/ 185).
(4) فتح الباري (2/ 462).
(5) فتح الباري (13/ 306).
(6) فتح الباري (11/ 521).
(7) فتح الباري (4/ 287).

فقال: إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم[1]، يعني وصل المرأة شعرها بشعر آخر، وقد صح في عدد من الأحاديث لعن الواصلة والمستوصلة. وفي رواية أخرى أنه قال لهم: إنكم أحدثتم أي حدث سوء نهى رسول الله ﷺ عن (الزور)[2]. سماه الرسول زوراً لما فيه من التزوير والتغيير. فهنا نراه حريصاً على إحياء سنة كصوم عاشوراء الذي رأى أن الناس أهملوه، كما نراه حريصاً على إماتة بدعة ظهرت في الناس، وهي تقليد اليهوديات بوصل الشعر[3]. وروى عبد الرحمن بن هرمز الأعرج: أن العباس بن عبد الله بن عباس أنكح عبد الرحمن بن الحكم ابنته، وأنكحه عبد الرحمٰن ابنته، وقد جعلا ـ أي العقدين ـ صداقاً (أي كل منهما صداق الأخرى)، فكتب معاوية بن أبي سفيان ـ وهو خليفة ـ إلى مروان، يأمره بالتفريق بينهما، وقال في كتابه: هذا السِّفار الذي نهى عنه رسول الله ﷺ[4]، فهو يراعي إقامة السنة في حياة الناس في الأمور كلها، أمور الفرد، وأمور الأسرة، وأمور الجماعة[5]، وكان ﷺ لا يروي الحديث عن رسول الله إلا بمناسبة اقتضته، فقد ورد أنه دخل على عبد الله ابن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر له، ولم يقم ابن الزبير، فقال معاوية: مَهْ. قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يَمثُل له عباد الله قياماً، فليتبوّأ مقعده من النار»[6]. وعن مجاهد وعطاء عن ابن عباس: أن معاوية أخبره أن رسول الله قصر من شعره ـ أي في العمرة ـ بمِقَص، فقلنا لابن عباس: ما بلغنا هذا إلا عن معاوية. فقال: ما كان معاوية على رسول الله متّهماً[7].

وكان ﷺ يهتم بمذاكرة العلم ويحرص عليه، فعن عبد الله بن الحارث قال: دخلت مع ابن عباس على معاوية فأجلسه على السرير، وفي تلك القصة سأله معاوية عن مسألة فقهية، وكان ﷺ يعلم الناس ويحثهم على سؤاله والاستفادة من علمه، فقد خطب يوم جمعة وقال: أيها الناس اعقلوا قولي، فلن تجدوا أعلم بأمور الدنيا والآخرة مني، أقيموا وجوهكم وصفوفكم في الصلاة فلتقيمن وجوهكم وصفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم، خذوا على أيدي سفهائكم أو ليسلطنهم الله عليكم، فليسومنكم سوء العذاب، تصدقوا لا يقولنَّ الرجل: إني مقلٌّ. فإن صدقة المقلِّ أفضل من صدقة الغني، إياكم وقذف المحصنات، وأن يقول الرجل: سمعت وبلغني فلو قذف أحدكم امرأة على عهد نوح لسُئل عنها يوم القيامة[8]. وكان ﷺ حريصاً على متابعة رسول الله ﷺ، فعندما دخل مكة سأل ابن عمر: أين صلى رسول الله؟ فقال: اجعل بينك وبين الجدار ذراعين أو ثلاثة[9]. وله اجتهاد في تعيين ليلة

(1) الفتح (6/ 591).
(2) الفتح (6/ 595).
(3) تاريخنا المفترى عليه للقرضاوي، ص: 71.
(4) مسند أحمد، رقم: 16856، إسناده حسن.
(5) تاريخنا المفترى عليه للقرضاوي، ص: 71.
(6) البخاري، رقم: 3488.
(7) مسند أحمد، رقم: 16813، إسناده صحيح.
(8) البداية والنهاية (11/ 437).
(9) الفتح (3/ 544).

القدر، فقد روى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن معاوية قال: ليلة القدر ليلة ثلاث وعشرين[1]، وكان يعترف بالحجة والبرهان لغيره، فعن ابن عباس أنه طاف مع معاوية وكان معاوية يستلم الأركان بالبيت، فقال له ابن عباس ﷺ: إنه لا يستلم هذان الركنان. فقال: ليس شيء من البيت مهجوراً[2]. وجاء في رواية: فقال له ابن عباس ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21] فقال معاوية: صدقت[3]، ومن الأحكام التي قضاها معاوية ﷺ ما أخرجه ابن أبي شيبة من طريق عبد الله بن معقل قال: ما رأيت قضاء أحسن من قضاء قضى به معاوية: نرث أهل الكتاب ولا يرثونا، كما يحل النكاح فيهم ولا يحل لهم[4].

ومن المسائل الفقهية التي أثرت عن معاوية ﷺ:

أ - أثر عنه ﷺ أنه أوتر بركعة[5].

ب - أثر عنه ﷺ الاستسقاء بمن ظهر صلاحه[6].

جـ - أنه يجزىء إخراج نصف صاع من البر في زكاة الفطر[7].

د - استحباب تطيب البدن لمن أراد الإحرام[8].

هـ - جواز بيع وشراء دور مكة[9].

و - التفريق بين الزوجين بسبب العُنَّة[10].

ز - وقوع طلاق السكران[11].

ح - عدم قتل المسلم بالكافر قصاصاً[12].

ط - حبس القاتل حتى يبلغ ابن القتيل[13].

وأما علومه في الفقه السياسي والسياسة الشرعية، ومقاصد الشريعة، وفقه الجهاد، فالكاتب سوف يحدثنا عن الكثير من فقهه في إدارة الدولة وتحقيق أهدافها.

---

(1) الفتح (4/ 311).

(2) الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح الباري، ص: 585.

(3) المصدر نفسه، ص: 586.

(4) مصنف ابن أبي شيبة (11/ 374) سنن سعيد (1/ 45).

(5) فتح الباري (7/ 130).

(6) المغني (3/ 346).

(7) زاد المعاد (2/ 19).

(8) المغني (5/ 77).

(9) المصدر السابق (6/ 366).

(10) العُنَّة: هي عجز الرجل عن إتيان زوجته، القاموس المحيط، ص: 1570، زاد المعاد (5/ 181)

(11) المصدر السابق (5/ 211).

(12) المغني (11/ 466).

(13) المصدر السابق (11/ 577)، مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 28، 29.

2 - الحلم والعفو:

اشتهر أمير المؤمنين معاوية بصفة الحلم وكان يضرب به المثل في حلمه ﷺ، وكظم غيظه وعفوه عن الناس، وقد ذكر ابن كثير ما كان يتصف به أمير المؤمنين معاوية من الحلم حيث قال: وقال بعضهم: أسمع رجل معاوية كلاماً سيئاً شديداً، فقيل له: لو سطوت عليه، فقال: إني لأستحي من الله أن يضيق حلمي عن ذنب أحد من رعيتي. وفي رواية قال له رجل: يا أمير المؤمنين ما أحلمك!! فقال: إني لأستحي أن يكون جرم أحد أعظم من حلمي. وقال الأصمعي عن الثوري قال: قال معاوية: إني لأستحي أن يكون ذنب أعظم من عفوي، أو جهل أكبر من حلمي، أو تكون عورة لا أواريها بستري. وقال معاوية: يابني أمية فارقوا قريشاً بالحلم، فوالله لقد كنت ألقى الرجل في الجاهلية فيوسعني شتماً وأوسعه حلماً، وأرجع وهو لي صديق، إن استنجدته أنجدني، وأثور به فيثور معي، وما وضع الحلم عن شريف شرفه، ولا زاده إلا كرماً، وقال: لا يبلغ الرجل مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته، ولا يبلغ الرجل ذلك إلا بقوة الحلم[1]، وسئل معاوية: من أسود الناس؟ فقال: أسخاهم نفساً حين يسأل، وأحسنهم في المجالس خلقاً، وأحلمهم حين يستجهل[2]، وقال أبو عبيدة معمر ابن المثنى: كان معاوية يتمثل بهذه الأبيات كثيراً:

فما قتل السفاهة مثل حلم ... يعود به على الجهل الحليم
فلا تسفه وإن ملئت غيظاً ... على أحد فإن الفحش لُؤمُ
ولا تقطع أخاً لك عند ذنب ... فإن الذنب يغفره الكريم[3]

وكتب معاوية إلى نائبه زياد: إنه لا ينبغي أن يُساسَ الناس سياسة واحدة باللين فيمرحوا، ولا بالشدة فيُحْمَلَ الناس على المهالك، ولكن كن أنت للشدة والفظاظة والغلظة، وأنا للّين والألفة والرحمة، حتى إذا خاف خائف وجد باباً يدخل منه[4].

فهذه الأقوال المروية عن أمير المؤمنين معاوية ﷺ تبين لنا شيئاً مما اشتهر عنه من الاتصاف بخلق الحلم، وقد كان هذا الخلق همزة وصل بينه وبين من يعاملونه بشيء من الجفاء من أفراد رعيته، أو يصارحونه بقوة بما يرونه حقاً وهو يخالفهم في ذلك، وكان لتخلقه بخلق الحلم الذي لم يخالطه ضعف أثر في نجاحه في تثبيت أركان دولته، وذلك بمقدرته الفائقة على امتصاص غضب المخالفين، وتحويلهم إلى الرضى والقناعة بسياسته، وهكذا تأتي مكارم الأخلاق التي من أهمها الحلم والعفو والصبر والكرم لتكون من أهم عناصر السيادة، وقد أبان في هذه الأقوال بأن الحلم يخالطه شيء من الذل كما أن النصر يخالطه شيء

(1) البداية والنهاية (11/ 441).
(2) المصدر نفسه (11/ 442).
(3) المصدر نفسه (11/ 442).
(4) المصدر نفسه (11/ 443).

من العز، ولكن أبدى سروره بذلك الذل لما يترتب عليه من النتائج الحميدة التي منها اكتساب الأصدقاء والأنصار[1]. وفي كتابه إلى زياد أمير العراق بيان لسياسته الجيدة التي تخيف المتهورين الميالين إلى إحداث الفوضى والإخلال بالأمن، ولكنها في الوقت نفسه تبعث الأمل لدى من يراجعون أنفسهم ويريدون سلوك طريق الاستقامة والسلامة[2]، ولقد أثنى على أمير المؤمنين معاوية حكماء عصره وذكروا اتصافه بمكارم الأخلاق وخاصة الحلم، وفي ذلك يقول الحافظ ابن كثير: وقال عبد الملك بن مروان - يوماً وذكر معاوية فقال -: ما رأيت مثله في حلمه واحتماله وكرمه[3]، وقال قبيصة بن جابر: مارأيت أحداً أعظم حلماً، ولا أكثر سؤدداً، ولا أبعد أناة، ولا ألين مخرجاً، ولا أرحب بالمعروف من معاوية[4]. وقال عبد الله ابن الزبير ﷺ: لله در ابن هند، إن كنا لنُفْرِقه[5]، وما الليث على براثنه بأجرأ منه فيتفارق لنا، وإن كنا لنخدعه وما ابن ليلةٍ من أهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا، والله لوددت أنا مُتِّعنا به مادام في هذا الجبل حجر، وأشار إلى أبي قبيس[6]. وفي قول ابن الزبير هذا وصف دقيق لمعاملة معاوية لقادة المسلمين وسادتهم، فهو جريء شجاع ولكن يظهر عمداً ليصل من ذلك إلى عدم إثارة المخالفين، لأن إظهار الشجاعة يثير عنصر التحدي لديهم، وهو أدهى أهل الأرض في زمانه، ولكنه يظهر الانخداع أمام محدثيه ليصل إلى تجفيف منابع نقمتهم عليه، وهو في ذلك كله يخدم هدفاً سامياً وهو تحقيق حياة الرخاء والأمن للأمة الإسلامية، ولقد تمنى ابن الزبير أن يطول عمر معاوية لأنه يخشى من تغير الأحوال من بعده[7]، ويصف حبر الأمة عبد الله بن عباس ﷺ سياسة معاوية بكلام موجز، لكنه يعني خلاصة تفكير عميق حيث يقول: قد علمت بِمَ غلب معاوية الناس، كانوا إذا طاروا وقع، وإذا وقع طاروا[8]. وهذا يعني أنه إذا رأى السيول الجارفة قد أقبلت لم يقاومها، وإنما يفسح لها حتى تمر، ثم يحتوي الميدان وقد زال إقبال الناس الشديد فيتمكن مما يريد، وقد عبر معاوية عن هذه السياسة بقوله المشهور: لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، إذا جذبوها أرخيتها، وإذا أرخوها جذبتها، ومن مواقفه في الحلم أنه: جرى بين رجل يقال له أبو جهم وبين معاوية كلام، فتكلم أبو جهم بكلام فيه غَمْزٌ لمعاوية، فأطرق معاوية ثم رفع رأسه فقال: يا أبا الجهم إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبيان ويأخذ أخذ الأسد، وإن قليله يغلب كثير الناس، ثم أمر معاوية لأبي الجهم بمال، فقال أبو الجهم في ذلك يمدح معاوية:

---

(1) التاريخ الإسلامي (17/ 26).
(2) التاريخ الإسلامي (17/ 26).
(3) البداية والنهاية (11/ 439).
(4) المصدر نفسه (11/ 439).
(5) نفرقه: نخوّفه.
(6) البداية والنهاية (11/ 442).
(7) التاريخ الإسلامي (17/ 27).
(8) البداية والنهاية (11/ 443).

نميل على جوانبه كأنا نميل إذا نميل على أبينا
نُقلِّبه لنخبر حالتيه فنخبر منهما كرماً ولينا[1]

وهكذا كان لحلم معاوية ﷺ وحسن خلقه ومبادلته الإساءة بالإحسان الأثر الكبير في نفس أبي الجهم فقال هذين البيتين في الثناء على معاوية، ولقد كان سلوك أمير المؤمنين معاوية تطبيقاً لقوله الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: 34-35].

ونظراً لحلم معاوية الكبير وما يتصف به من الشجاعة والعزة فإن أمير المؤمنين عمر ﷺ أثنى عليه[2] بقوله: دعوا فتى قريش وابن سيدها، إنه لمن يضحك في الغضب ولا يُنال منه إلا على الرضا، ومن لا يؤخذ ما فوق رأسه إلا من تحت قدميه[3]. فهذا قول دقيق من عمر في وصف معاوية، فقد وصفه بالدرجة العالية من الحلم والعزة التي تجعله منيعاً لا ينال ما عنده على قهر منه، وهذه الصفة من صفاته التي جعلت أمير المؤمنين عمر يبقيه أميراً على الشام لخطورة ذلك الثغر[4].

وقال معاوية ﷺ: العقل والحلم أفضل ما أعطي العبد، فإذا ذُكِّر ذكر وإذا أُعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا غضب كظم، وإذا قدر غفر، وإذا أساء استغفر، وإذا وعد أنجز[5]. ففي هذا الخبر جمع أمير المؤمنين معاوية ﷺ درراً من الحكم، وهي الشكر عند الرخاء، والصبر عند الابتلاء والتحكم في السلوك عند الغضب، والعفو عند المقدرة، والوفاء بالوعد، والاستغفار عند الإساءة، فهذا الخبر على قصره قد جمع ستة موضوعات، كل موضوع يحتاج إلى أن يكتب عنه في صفحات، وهذا من جوامع الكلم، وهو يعتبر من أعلى أنواع البلاغة، وذلك في جمع المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة، وقد اشتهر في هذا البيان عدد من الصحابة ﷺ تتلمذوا في ذلك على رسول الله ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم[6].

3 - الدهاء والحيلة:

ومن الصفات التي تميز بها معاوية ﷺ صفة الدهاء والحيلة ومما يروى من دهائه وحسن إدارته وتدبيره، أن المسلمين غزوا في أيامه فأسر جماعة منهم، فوقفوا بين يدي ملك الروم

(1) التاريخ الإسلامي (17/ 28) البداية والنهاية (11/ 440).
(2) التاريخ الإسلامي (17/ 29,30).
(3) البداية والنهاية (11/ 415).
(4) التاريخ الإسلامي (11/ 30).
(5) أنساب الأشراف (5/ 336).
(6) التاريخ الإسلامي (19/ 20,355).

بقسطنطينية، فتكلم بعض أسارى المسلمين، فدنا منه بعض البطارقة[1] ممن كان واقفاً بين يدي الملك فلطم حرّ وجهه[2]، وكان رجلاً من قريش فصاح: واإسلاماه أين أنت عنا يا معاوية إذ أهملتنا وأضعت ثغورنا وحكّمت العدو في دمائنا وأعراضنا. فنمى ذلك الخبر إلى معاوية، فألمه وامتنع من لذيذ الطعام والشراب، فخلا بنفسه، وامتنع عن الناس ولم يظهر ذلك لأحد من المخلوقين، ثم أعمل الحيلة في إقامة الفداء بين المسلمين والروم، إلى أن فدى ذلك الرجل، ومن أسر معه من المسلمين، فلما صار الرجل إلى دار الإسلام، دعاه معاوية فبره وأحسن إليه ثم قال له: لم نهملك، ولم نضيعك، ولا أبحنا دمك وعرضك. ومعاوية أثناء ذلك يدبر الرأي ويعمل الحيلة ثم بعث إلى رجل من ساحل دمشق من مدينة صور، وكان عارفاً كثير الغزوات في البحر صُمكّ[3] من الرجال مرطان بالرومية، فأحضره وخلا به، وأخبره بما قد عزم عليه وسأله إعمال الحيلة فيه والتأني له، فتوافقا على أن يدفع للرجل مالاً عظيماً، ليبتاع به أنواعاً من الطرف والملح والجهاز من الطيب والجوهر وغير ذلك، وأنشأ له مركباً لا يلحق في جريه سرعة، ولا يدرك في سيره، إنشاءً عجيباً، فسار الرجل حتى أتى مدينة قبرص فاتصل برئيسها وأخبره أن معه حاجة للملك، وأنه يريد التجارة إلى القسطنطينية، قاصداً إلى الملك وخواصه بذلك، فروسل[4] الملك بشأنه، فأذن له، فدخل خليج القسطنطينية، فلما وصلها أهدى للملك وجميع بطارقه، وبايعهم وشاراهم، وقصدهم، إلا ذلك البطريق الذي لطم القرشي، وتأنى الصوري من الأمور على حسب ما رسمها له معاوية، وأقبل الرجل من القسطنطينية إلى الشام، وقد أمره أكثر البطارقة أن يبتاع حوائج ذكروها، وأنواعاً من الأمتعة وصفوها، فلما صار إلى الشام سار إلى معاوية سراً، وذكر له من الأمر ما جرى، فابتيع له ما طلب منه وما علم أن رغبتهم فيه وتقدم إليه معاوية فقال: إن ذلك البطريق إذا عدت في كرتك هذه سيعذلك عن تخلفك عن بره، واستعانتك به، فاعتذر إليه ولاطفه بالقول والهدايا، واجعله القيم بأمرك والتفقد لأحوالك، تزداد عندهم، فإذا أتقنت جميع ما أمرتك به، وعلمت ما غرض البطريق وإيش الذي يأمرك بابتياعه فعد به إلينا لتكون الحيلة على حسبه. فلما رجع الصوري إلى القسطنطينية ومعه جميع ما طلب منه والزيادة مما لم يطلب زادت منزلته، وارتفعت أحواله عند الملك والبطارقة وسائر الحاشية، فلما كان في بعض الأيام وهو يريد الدخول إلى الملك، قبض عليه ذلك البطريق في دار الملك، وقال له: ما ذنبي إليك؟ وبم استحق غيري أن تقصده وتقضي حوائجه وتعرض عني، قال الصوري:

(1) البطارقة: جمع بطريق وهو رئيس الأساقفة، والأسقف رجل الكنيسة.
(2) لطم حرّ وجه: ما ظهر منه.
(3) الصمك والصموك: القوي الشديد، والغليظ الجافي.
(4) الشهب اللامعة، ص: 487.

أكثر من ذكرت ابتدأني وأنا رجل غريب، وأرحل إلى هذا البلد كالمتنكر من أسارى المسلمين وجواسيسهم لئلا يَنِمُّوا خبري ويوشوا بأمري إلى المسلمين فيكون في ذلك بواري، والآن فإذا قد علمت ميلك إليّ فلست أحب أن يعتني بأمري سواك، ولا يقوم بحالي عند الملك وغيره غيرك، فمرني بحوائجك وجميع ما يعرض من أمورك بأرض الإسلام. وأهدى إلى ذلك البطريق هدية حسنة من الزجاج المخروط والطيب والجوهر والطرف والثياب. ولم يزل هذا فعله، يتردد من الروم إلى معاوية ومن معاوية إلى الروم ويسأله الملك والبطريق وغيره من البطارقة الحوائج الجليلة والحيلة لا تتوجه إلى معاوية، حتى مضى على ذلك سنين فلما كان في بعضها قال البطريق للصوري، وقد أراد الخروج إلى دار الإسلام: قد اشتهيت أن تعمدني بقاء حاجة، وتمن بها عليّ، وهي أن تبتاع لي بساط سوسنجرد بمخاده ووسائده، ويكون فيه من أنواع الألوان الحمرة والزرقة وغيرها، ويكون من صفة كذا وكذا، ولو بما بلغ ثمنه كل مبلغ، فأنعم له بذلك، وكان من شأن الصوري أن يكون مركبه إذا ورد القسطنطينية بالقرب من موضع ذلك البطريق وكان للبطريق ضيعة سرية، وفيها قصر مشيد، ومنتزه حسن على أميال من القسطنطينية راكبه على الخليج، وكان البطريق أكثر أوقاته في ذلك المنتزه وكانت الضيعة فيما بين قسم الخليج من يلي بحر الروم والقسطنطينية، فانصرف الصوري إلى معاوية سراً، فأخبره بالحال فأحضر معاوية بساطاً بوسائد ومخاد ومجلس حسن[1]، فانصرف به مع جميع ما طلب منه من أرض الإسلام، وقد تقدم إليه معاوية بالحيلة، وكيفية إيقاعها. وكان الصوري فيما وصفنا من هذه المدة قد صار كأحدهم في المؤانسة والعشرة، وفي الروم طمع وشره فلما دخل من البحر إلى خليج القسطنطينية وقد طابت له الريح وقرب من ضيعة البطريق، أخذ الصوري أخبار البطريق من أصحاب القوارب والمراكب، فأخبر أن البطريق في ضيعته، وذلك أن الخليج طوله نحو من ثلاثمائة وخمسين ميلاً، والضياع والعمائر على حافتيه، والمراكب تختلف، والقوارب بأنواع المتاع والأقوات إلى القسطنطينية من هذه العمائر لا تحصى كثرة، فلما علم الصوري أن البطريق في ضيعته فرش البساط ونضد ذلك الصدر والمجلس بالوسائد والمخاد في صحن المركب ومجلسه، والرجال تحت المجلس بأيديهم المقاذيف مشكلة قائمة غير قاذفين بها، ولا يعلم بهم أنهم في بطن المركب إلا من ظهر منهم في عمله والريح في القلع، والمركب مار في الخليج كأنه سهم خرج عن كبد قوس لا يستطيع القائم على الشط أن يملأ بصره منه لسرعة سيره واستقامته في جريه، فأشرفه على قصر البطريق وهو جالس في مستشرفه مع حرمه، وقد أخذت منه الخمر، وعلاه الطرب، وذهب به الفرح والسرور كل مذهب، فلما رأى البطريق مركب الصوري زعق طرباً، وصاح فرحاً وسروراً وابتهاجاً

(1) الشهب اللامعة في السياسة النافعة، ص: 489.

بقدومه، فدنا من أسفل القصر فحط القلع، وأشرف البطريق على المركب فنظر إلى ما فيه من حسن ذلك البساط ونظم تلك الفرش، كأنه رياض يزهر، فلم يستطع اللبث في موضعه، حتى نزل قبل أن يخرج الصوري من مركبه إليه فطلع إلى المركب، فلما استقر قدمه على المركب ودنا من المجلس، ضرب الصوري بعقبه على من تحت البساط وكانت علامة بينه وبين الرجال الذين في بطن المركب، فما استقر دقه في المركب بقدمه، حتى اختطف المركب بالمقاذيف، وإذا هو وسط الخليج يطلب البحر لا يلوي على شيء وارتفع الصوت ولم يدر ما الخبر لمعالجة الأمر، فلم يكن الليل حتى خرج عن الخليج وتوسط البحر، وقد أوثق البطريق كتافاً، وطابت له الريح، وأسعده الجد، وحمله المقدار في ذلك اللج، فتعلق في اليوم السابع بساحل الشام، ورأى البر وحمل الرجل فكان في اليوم الثالث عشر مأسوراً بين يدي معاوية فسر بذلك معاوية[1]. وقال: عليّ بالرجل القرشي، فأتي به وقد حضره خواص الناس، فأخذوا مجالسهم، وغص المجلس بأهله، فقال معاوية للقرشي: قم فاقتص من هذا البطريق الذي لطم وجهك على بساط معظّم الروم، فإنّا لم نضيعك ولا أبحنا دمك ولا عرضك، فقام القرشي فدنا من البطريق، فقال معاوية: انظر لا تتعدى ما جرى عليك، واقتص منه على حسب ما صنع بك ولا تعتد، وارع ما أوجب الله عليك من المماثلة، فلطمه القرشي لطمات ووكزه في حلقه، ثم أكب القرشي على يدي معاوية وأطرافه يقبلها، وقال: ما ضاع من سوَّدك، ولا خاب فيك من رأسك، أنت ملك لا يستضام[2] تمنع حماك وتصون رعيتك، وأرق في وصفه ودعائه. وأحسن معاوية إلى البطريق، وخلع عليه وبرّه، وحمل معه البساط، وأضاف إلى ذلك أشياء كثيرة وهدايا إلى الملك، وقال له: ارجع إلى ملكك، وقل له: تركت ملك المسلمين[3] يقيم الحدود على بساطك، ويقتص لرعيته في دار مملكتك وسلطانك وعزك، وقال للصوري: سر معه حتى تأتي الخليج فتطرحه فيه ومن أسر معه، ممن كان بادر فصعد إلى المركب من غلمان البطريق وخاصته، فحملوا إلى صور مكرمين، وحمل الجميع في المركب، وطابت لهم الريح، فكانوا في اليوم الحادي عشر متعلقين بأرض الروم فقربوا من الخليج فإذا قد أحكم فمه بالسلاسل والمنعة من الموكولين به، فطرح البطريق، وحمل من وقته إلى الملك ومعه الهدايا والأمتعة وتباشرت الروم بقدومه، وتلقوه مهنئين له بخلاصه من الأسر، فكافأ الملك معاوية على ما كان من فعله في أمر البطريق والهدايا، فلم يكن يستضام أسير من المسلمين في أيامه، وقال الملك: هذا أدهى العرب وأمكر الملوك، ولهذا قدمته

(1) الشهب اللامعة في السياسة النافعة، ص: 490.
(2) الضيم: الإذلال والقهر، أي ملك لا يقهر ولا يزل.
(3) أصل الكلمة في الأصل: العرب.

العرب عليها، فأساس أمورها، ولو هَمَّ بأخذي لتمت له الحيلة علي[1]. وهذه القصة دليل على دهاء معاوية ﷺ وحسن سياسته واهتمامه بأمور رعيته والمحافظه على حقوق كل فرد فيها وصيانة[2] كرامته.

4 - عقليته الفذة وقدرته على الاستيعاب:

امتاز معاوية ﷺ بالعقلية الفذة، فإنه كان يتمتع بالقدرة الفائقة على الاستيعاب، فكان يستفيد من كل ما يمر به من الأحداث، ويعرف كيف يتوقاها، وكيف يخرج منها إذا تورط فيها، وكانت خبراته الواسعة وممارسته لأعباء الحكم على مدى أربعين سنة، منذ ولاه عمر ﷺ الشام، فكانت ولايته على الشام عشرين سنة أميراً، وعشرين سنة خليفة[3]، هذه الفترة الطويلة التي تقلب فيها بين المناصب العسكرية والولاية المدنية أكسبته خبرة في سياسة البلاد، والاستفادة من كل الظروف والأوضاع التي تمر بها، حتى استطاع أن يسير بالدولة عشرين سنة دون أن ينازعه منازع[4]، يقول الشيخ الخضري: أما معاوية نفسه، فلم يكن أحد أوفر منه يداً في السياسة، صانع رؤوس العرب، وكانت غايته في الحلم لا تدرك، وعصابته فيه لا تنزع ومرقاته فيه تزل عنها الأقدام[5]، ومن المعلوم أن السياسة الناجحة تتوقف على القدرة على ضبط النفس عند الغضب، واحتواء الشدائد حتى تنجلي، ولمعاوية في ذلك نصيب وافر ﷺ وكانت تلك سياسته مع العامة والخاصة، وهذه طريقه مع الملوك والسوقة، وهذه أمثلة من سياسته في معاملة الناس.

أ - المسور بن مخرمة ﷺ واعتراضه على معاوية: عن عروة بن الزبير: أن المسور بن مخرمة أخبره أنه قدم وافداً على معاوية بن أبي سفيان فقضى حاجته، ثم دعاه فأخلاه فقال: يامسور ما فعل طعنك على الأئمة؟ فقال المسور: دعنا من هذا وأحسن فيما قدمنا له. قال: معاوية لا والله لتكلمنَّ بذات نفسك، والذي تعيب عليّ. قال المسور: فلم أترك شيئاً أعيبه عليه إلا بينته له. قال معاوية: لا بريء من الذنب، فهل تعد يامسور ما لي من الإصلاح في أمر العامة، فإن الحسنة بعشر أمثالها؟ أم تعد الذنوب وتترك الحسنات. قال المسور: لا والله ما نذكر إلا ما ترى من هذه الذنوب. قال معاوية: فإنا نعترف لله بكل ذنب أذنبناه فهل لك يامسور ذنب في خاصتك تخشى أن تهلكك إن لم يغفرها الله؟ قال مسور: نعم! قال معاوية: فما يجعلك أحق أن ترجو المغفرة مني؟ فوالله لما ألي من الإصلاح أكثر مما تَلِي ولكن والله لا

(1) الشهب اللامعة في السياسة النافعة، ص: 491.
(2) المصدر نفسه، ص: 491 تعليق محقق الكتاب السيد سليمان معتوق الرفاعي ﷺ.
(3) الطبقات الكبرى (7/ 406).
(4) الأمويون بين الشرق والغرب (1/ 82).
(5) الدولة الأموية للخضري، ص: 377.

أُخير بين أمرين وبين الله وغيره إلا اخترت الله تعالى على ما سواه، وأنا على دين يقبل الله فيه العمل، ويجزي فيه بالحسنات، ويجزي فيه بالذنوب إلا أن يعفو عمن يشاء، فأنا أحتسب كل حسنة عملتها بأضعافها، وأوازي أموراً عظاماً لا أحصيها ولا تحصيها من عمل لله في إقامة صلوات المسلمين، والجهاد في سبيل الله ﷻ، والحكم بما أنزل الله تعالى، والأمور التي ليست تحصيها وإن عددتها لك. قال المسور: فعرفت أن معاوية قد خصمني حين ذكر لي ما ذكر. قال عروة: فلم يُسمع المسور بعد ذلك يذكرمعاوية إلا استغفر له[1] وفي هذا الخبر مثل جيد في فن الإقناع ومحاولة امتصاص غضب المخالفين وتحويل قناعاتهم، فقد استطاع أمير المؤمنين معاوية ﷺ أن يقنع المسور بن مخرمة ﷺ بتقبل سياسته التي يسير عليها، وعاد مادحاً داعياً له بعدما كان متقداً مهاجماً له، وفي هذا الخبر لفتة تربوية من معاوية حيث أبان من العدل في الحكم على المسلم أن ينظر الحاكم عليه إلى حسناته وصوابه مع أن ينظر إلى سيئاته وخطئه، ثم يوازن بين الجانبين، فلعل هذا المسلم الذي برزت أخطاؤه في ذهن من تصدى لنقده تكون له حسنات كثيرة جليلة قد لا تعد أخطاؤه إلى جانبها شيئاً مذكوراً[2].

ب - ثابت بن قيس بن الخطيم الأنصاري ﷺ: كان ثابت بن قيس بن الخطيم شديد النفس، وكان له بلاء مع علي بن أبي طالب، واستعمله علي بن أبي طالب على المدائن، فلم يزل عليها حتى قدم المغيرة بن شعبة الكوفة، وكان معاوية يتقي مكانه. فانصرف ثابت بن قيس إلى منزله فوجد الأنصار مجتمعة في مسجد بني ظفر يريدون أن يكتبوا إلى معاوية في حقوقهم أول ما استخلف... فقال: ما هذا، فقالوا: نريد أن نكتب إلى معاوية. فقال: ما تصنعون أن يكتب إليه جماعة؟! يكتب إليه رجل منا فإن كانت كائنة برجل منكم فهو خير من أن تقع بكم جميعاً وتقع أسماؤكم عنده فقالوا: فمن ذلك الذي يبذل نفسه لنا؟ قال: أنا. قالوا: فشأنك، فكتب إليه وبدأ بنفسه فذكر أشياء منها: نصرة النبي ﷺ وغير ذلك. وقال: حبست حقوقنا واعتديت علينا وظلمتنا، وما لنا إليك ذنب إلا نصرتنا للنبي ﷺ، فلما قدم كتابه إلى معاوية دفعه إلى يزيد فقرأه ثم قال له: ما الرأي، فقال: تبعث فتصلبه على بابه، فدعا كبراء أهل الشام فاستشارهم، فقالوا: تبعث إليه حتى تقدم به هُهنا وتقفه لشيعتك ولأشراف الناس حتى يروه، ثم تصلبه. فقال: هل عندكم غير هذا؟ قالوا: لا، فكتب إليه: قد فهمت كتابك، وما ذكرت النبي ﷺ وقد علمت أنها كانت ضجرة لشغلي وما كنت فيه من الفتنة التي شهرت فيها نفسك فأنظرني ثلاثاً، فقدم كتابه على ثابت فقرأه على قومه، وصبَّحهم العطاء في اليوم الرابع[3].

(1) تاريخ بغداد (1/ 20، 209) سير أعلام النبلاء (3/ 151).
(2) التاريخ الإسلامي (17، 18/ 539).
(3) تاريخ بغداد (1/ 176).

فهذا الخبر فيه موقف كبير لأمير المؤمنين معاوية ﷺ في الحكمة والسياسة، فهو بعد أن استشار ابنه يزيد وبعض وجهاء الشام لم يعجبه رأيهم ولم يوافقهم على أخذ الناس بالشدة والعنف والجبروت، بل سارع إلى إرسال عطاء الأنصار ﷺ، ولم يؤاخذ ثابت بن قيس ﷺ على شدة اللهجة في كتابه إليه، وبهذا التصرف الحكيم والسياسة الرشيدة لم يخسر شيئاً بل كسب رضى الأنصار عنه ورضى غيرهم ممن يطلع على خبره معهم، ولو أنه أخذ بمشورة السذج المتجبرين فبطش بصاحب ذلك الكتاب لثار عليه الأنصار، ولناصرهم طوائف من المسلمين لشهرتهم ومكانتهم في الإسلام[1].

جـ - **الأحنف بن قيس** ﷺ: ذكر ابن خلكان في ترجمته: ثم إن عبيد الله - يعني ابن زياد أمير العراق - جمع أعيان العراق وفيهم الأحنف وتوجه بهم إلى الشام للسلام على معاوية، فلما وصلوا دخل عبيد الله على معاوية وأعلمه بوصول رؤساء العراق، فقال: أدخلهم عليَّ أوّلاً فأوّل على قدر مراتبهم عندك، فخرج إليهم وأدخلهم على الترتيب كما قال معاوية، وآخر من دخل الأحنف، فلما رآه معاوية - وكان يعرف منزلته ويبالغ في إكرامه لتقدمه وسيادته - قال: إليَّ يا أبا بحر، فتقدم إليه فأجلسه معه على مرتبته، وأقبل عليه يسأله عن حاله ويحادثه، وأعرض عن بقية الجماعة. قال: ثم إن أهل العراق أخذوا في الشكر في عبيد الله والثناء عليه، والأحنف ساكت، فقال له معاوية: لم لا تتكلم يا أبا بحر؟ فقال: إن تكلمت خالفتهم، فقال له معاوية: اشهدوا علي أنني قد عزلت عبيد الله عنكم، قوموا انظروا في أمير أوليه عليكم وترجعون إليَّ بعد ثلاثة أيام. قال: فلما خرجوا من عنده كان فيهم جماعة يطلبون الإمارة لأنفسهم، وفيهم من عيَّن غيره، وسعوا في السِّر مع خواص معاوية أن يفعل لهم ذلك، ثم اجتمعوا بعد انقضاء الثلاثة كما قال معاوية، والأحنف معهم، ودخلوا عليه فأجلسهم على ترتيبهم في المجلس الأول، وأخذ الأحنف إليه كما فعل أوّلاً وحادثه ساعة، ثم قال: ما فعلتم فيما انفصلتم عليه؟ فجعل كل واحد يذكر شخصاً وطال حديثهم في ذلك وأفضى إلى منازعة وجدال، والأحنف ساكت، ولم يكن في الأيام الثلاثة تحدث مع أحد في شيء، فقال له معاوية: لم لا تتكلم يا أبا بحر؟ فقال الأحنف: إن ولَّيت أحداً من أهل بيتك لمن تجد من يعدل عبيد الله ولا يسد مسدَّه، وإن وليت من غيرهم فذلك إلى رأيك، ولم يكن في الحاضرين الذين بالغوا في المجالس الأول في الثناء على عبيد الله، من ذكره في هذا المجلس ولا سأل عوده إليهم. قال: فلما سمع معاوية مقالة الأحنف قال للجماعة: اشهدوا علي أني قد أعدت عبيد الله إلى ولايته، فكل منهم ندم على عدم تعيينه، وعلم معاوية أن شكرهم لعبيد الله لم يكن لرغبتهم فيه، بل كما جرت العادة في حق المتولي. قال: فلما فصل الجماعة من مجلس

(1) التاريخ الإسلامي (17/ 537).

معاوية خلا بعبيد الله وقال له: كيف ضيعت مثل هذا الرجل - يعني الأحنف - فإنه عزلك وأعادك إلى الولاية وهو ساكت، وهؤلاء الذين قدمتهم عليه واعتمدت عليهم لم ينفعوك ولا عرجوا عليك لما فوضت الأمر إليهم، فمثل الأحنف من يتخذه الإنسان عوناً وذخراً. قال: فلما عادوا إلى العراق أقبل عليه عبيد الله وجعله بطانته وصاحب سره[1] وفي هذا الخبر موقف لمعاوية رضي الله عنه حينما علم قدر الأحنف بن قيس رحمه الله وأدرك رفعة منزلته، فرفعه وأدناه منه وأظهر له كثيراً من الاهتمام والاحترام وهذا كما أنه يعتبر من تقدير أهل الفضل فهو يعتبر من السياسة الجيدة في احتواء أهل القوة والتأثير على الناس[2] واستيعابهم. ومن القصص التي حدثت بين معاوية والأحنف والتي تدل على سعة صدر معاوية ومعرفته بعواقب الأمور، فعندما استقر الأمر لمعاوية دخل عليه يوماً، فقال له معاوية: والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت حزازة في قلبي إلى يوم القيامة؟ فقال له الأحنف: والله يا معاوية إن القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا، وإن السيوف التي قاتلناك بها لفي أغمادها، وإن تدن من الحرب فتراً ندن منها شبراً، وإن تمشي إليها نهرول إليها، ثم قام وخرج وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه فقالت: يا أمير المؤمنين من هذا الذي يتهدد ويتوعد؟ قال: هذا الذي إذا غضب، غضب لغضبه مائة ألف من تميم لا يدرون فيم غضب[3].

د - **أبو قتادة الأنصاري** رضي الله عنه: ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب وجاء بالسند فقال: من جامع معمر رواية عبد الرزاق [4]، قال: حدّثنا معمر، عن عبد الله بن محمد بن عقيل: أن معاوية لما قدم المدينة لقيه أبو قتادة الأنصاري ، فقال له معاوية: يا أبا قتادة، تلقاني الناس كلّهم غيركم يا معشر الأنصار! ما منعكم؟ قال: لم يكن معنا دواب، قال معاوية: فأين النَّواضح؟ قال أبو قتادة: عقرناها في طلبك، وطلب أبيك يوم بدر، قال: نعم يا أبا قتاده: قال أبو قتادة: إن رسول الله ﷺ قال لنا: إنَّا سنرى بعده أثرة، قال معاوية: فما أمركم به عند ذلك؟ قال: أمرنا بالصبر، قال: فاصبروا حتَّى تلقوه[5].

5 - تواضعه وورعه:

ومن صفات معاوية رضي الله عنه التي اشتهر بها صفة التواضع فقد كان في خطبه العامة يعترف بأن

(1) وفيات الأعيان (2 / 503,504).

(2) التاريخ الإسلامي (17/ 24).

(3) وفيات الأعيان (2/ 186).

(4) مصنف عبد الرزاق، رقم: 19909، وهو مرسل فإن عبد الله بن محمد بن عقيل لم يدرك معاوية وأبا قتادة، وابن عقيل ليس بذاك: وأما إخبار النبي ﷺ للأنصار بأنهم سيرون بعده أثرةً وأمره لهم بالصبر حتى يأتوه فثابت من حديث أسيد بن حضير عند البخاري رقم 3792، ومسلم رقم 1845، الاستيعاب، ص: 670.

(5) الاستيعاب، ص: 670، رقم الترجمة 2346.

في الناس من هو خير منه وأفضل، وكان ذلك بعد أن تولى أمر المسلمين، واجتمع عليه الناس، فأصبح الأمير الذي لا ينازع. خطب مرة فقال: أيها الناس ما أنا بخيركم، وإن منكم لمن هو خير مني، عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وغيرهما من الأفاضل، ولكن عسى أن أكون أنفعكم ولاية، وأنكاكم في عدوكم، وأدرككم حلباً[1]. وروى الإمام أحمد بسنده إلى علي بن أبي حملة عن أبيه قال: رأيت معاوية على المنبر بدمشق يخطب الناس وعليه قميص مرقوع[2]، وعن يونس بن ميسر الحميري قال: رأيت معاوية في سوق دمشق، وهو مردف وراءه وصيفاً، وعليه قميص الجيب، يسير في أسواق دمشق[3]، وبلغ من ورعه أنه لما رأى إحدى جواريه، ونظر إليها بشهوة، ولكنه شعر بعجزه عن وطئها، قال لمن أحضرها إليه: اذهب بها إلى يزيد بن معاوية، ثم قال: لا، ادع لي ربيعة بن عمرو الجرشي ـ وكان ربيعة فقيهاً ـ فلما دخل عليه قال: إن هذه أتيت بها مجردة، وقد رأيت منها ذلك وذلك، وإني أردت أن أبعث بها إلى يزيد. فقال ربيعة: لا تفعل يا أمير المؤمنين: فإنها لا تصلح له، فقال معاوية: نعم ما رأيت، ثم وهب معاوية الجارية لعبد الله بن مسعدة الفزاري، مولى فاطمة بنت رسول الله ﷺ وكان أسود، فقال له: بيض بها ولدك[4]، ويعلق ابن كثير على ذلك بقوله: وهذا من فقه معاوية وتحريه، حيث كان نظر إليها بشهوة، ولكن استعفف نفسه عنها، فتحرج أن يهبها لولده يزيد لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: 22] وقد وافقه على ذلك ربيعة بن عمرو الجرشي الدمشقي[5].

6 - بكاؤه من خشية الله:

روي في مجلس معاوية رضي الله عنه حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ، في أن أول من تسعر بهم النار يوم القيامة من أمة محمد: القارىء المراثي، والمنفق المراثي، والمجاهد المراثي، وبين رسول الله ﷺ ذلك حيث قال: «**أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ورجل يقتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارىء: ألم أعلمك ما أنزلت على رسلي؟ قال: بلى يا رب، قال: فماذا علمت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت. ويقول الله: بل أردت أن يقال إن فلاناً قارىء فقد قيل ذلك، ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال:**

(1) البداية والنهاية (11/ 436).
(2) سير أعلام النبلاء (3/ 152) الزهد، ص: 172.
(3) سير أعلام النبلاء (3/ 152) من سب الصحابة ومعاوية فأمه هاويه، ص: 129.
(4) البداية والنهاية (11/ 396).
(5) المصدر نفسه

بلى يا رب. قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال فلان جواد فقد قيل ذلك، ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقول الله له: فبماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت. فيقول الله تعالى له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذلك، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسعَّر بهم النار يوم القيامة. فعندما سمع معاوية هذا الحديث قال: قد فعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديداً حتى ظن من حوله أنه هالك، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه وقال: صدق الله ورسوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[1] [هود: 15-16] هذه أهم صفات معاوية التي خرجت لي عند البحث في سيرته.

ثالثاً: ثناء العلماء على معاوية ودخول دولة بني أمية في خير القرون:

1 - عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

قال عمر بن الخطاب: تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية[2]، وقال أبو محمد الأموي: خرج عمر بن الخطاب إلى الشام فرأى معاوية في موكب يتلقاه، وراح إليه في موكب، فقال له عمر: يا معاوية، تروح في موكب وتغدو في مثله، وبلغني أنك تصبح في منزلك وذوو الحاجات ببابك، قال: يا أمير المؤمنين إن العدو بها قريب منا، ولهم عيون وجواسيس، فأردت يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزاً، فقال له عمر: إن هذا لكيد رجل لبيب، أوخدعة رجل أريب؛ فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، مرني بما شئت أصر إليه؛ قال: ويحك، ما ناظرتك في أمر أعيب عليك فيه إلا تركتني ما أدري آمرك أم أنهاك[3].

2 - علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: لا تكرهوا إمارة معاوية فوالله لئن فقدتموه لترون رؤوساً تندر عن كواهلها كأنها الحنظل[4]. فهذا توجيه من أمير المؤمنين علي لأصحابه لعدم كراهيتهم إمارة معاوية.

3 - عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال:

ما رأيت أحداً أسود من معاوية قال: قلت: ولا عمر؟ قال: كان عمر خيراً منه وكان معاوية

---

(1) رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريره وصححه الألباني 1713.

(2) المعجم الكبير (5/ 330) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 83.

(3) أنساب الأشراف (4/ 147)، الاستيعاب رقم الترجمة 2346 مروياً خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 84.

(4) البداية والنهاية (11/ 430).

أسود[1] منه، وفي رواية: مارأيت أحداً بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية. قيل: ولا أبا بكر؟ قال: كان أبو بكر وعمر وعثمان خيراً منه، وهو أسود منهم[2].

4 - عبد الله بن عباس رضي الله عنه :

قال رضي الله عنه : ما رأيت رجلاً كان أخلق بالملك من معاوية[3]، وفي صحيح البخاري أنه قيل لابن عباس: هل لك في أمير المؤمنين معاوية فإنه ما أوتر إلا بواحدة قال: إنه فقيه[4]، وذكر ابن عباس معاوية فقال: لله درّ ابن هند ما أكرم حسبه وأكرم مقدرته، والله ما شتمنا على منبر قط، ولا بالأرض ضنًّا منه بأحسابنا وحسبه[5] وحين عزى معاوية عبد الله بن عباس في الحسن ابن علي بقوله: لا يخزيك الله ولا يسوؤك في الحسن فقال له ابن عباس: أما ما أبقى الله لي أمير المؤمنين، فلن يسوؤني الله ولن يخزيني[6].

5 - سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه :

قال رضي الله عنه : ما رأيت أحداً بعد عثمان أقضى بحقٍّ من صاحب هذا الباب، يعني: معاوية[7].

6 - أبو هريرة رضي الله عنه :

كان يمشي في سوق المدينة وهو يقول: ويحكم تمسكوا بصدغي معاوية، اللّهم لا تدركني إمارة الصبيان[8].

7 - أبو الدرداء رضي الله عنه :

ما رأيت أحداً بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاة برسول الله من أميركم هذا - يعني معاوية[9] - قال ابن تيمية: بعد أن أورد أثر ابن عباس السابق، وأثر أبي الدرداء هذا: فهذه شهادة الصحابة بفقهه ودينه والشهادة بالفقه ابن عباس وبحسن الصلاة أبو الدرداء وهما هما والآثار الموافقة لهذا كثيرة[10].

---

(1) المصدر السابق (11/ 438).
(2) المصدر السابق (11/ 438).
(3) المصدر السابق (11/ 439).
(4) البخاري، رقم: 3765.
(5) تاريخ دمشق (62/ 128,129).
(6) مختصر تاريخ دمشق (25/ 67,68).
(7) سير أعلام النبلاء (3/ 150).
(8) مختصر تاريخ دمشق (25/ 79)، أثر العلماء، ص: 84.
(9) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (9/ 357) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير قيس بن الحرث المدحجي.
(10) منهاج السنة (6/ 235).

8 - سعيد بن المسيب رحمه الله:

قال ابن وهب عن مالك عن الزهري قال: سألت سعيد بن المسيِّب عن أصحاب رسول الله ﷺ فقال لي: اسمع يا زهري، من مات محباً لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وشهد للعشرة بالجنة، وترحم على معاوية كان حقيقاً على الله أن لا يناقشه الحساب[1].

9 - عبد الله بن المبارك رحمه الله:

قال: معاوية عندنا محنة، فمن رأيناه ينظر إليه شزراً، اتهمناه على القوم، يعني الصحابة[2]

وسئل ابن المبارك عن معاوية فقال: ما أقول في رجل قال رسول الله ﷺ: «سمع الله لمن حمده». فقال خلفه: ربَّنا ولك الحمد؟ فقيل: أيُّما أفضل: هو أم عمر بن عبد العزيز؟ فقال: لتراب في منخري معاوية مع رسول الله ﷺ خير وأفضل من عمر بن عبدالعزيز[3].

10 - عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

وقال ابن المبارك عن محمد بن مسلم عن إبراهيم بن ميسرة قال: ما رأيت عمر بن عبد العزيز ضرب إنساناً قط إلا إنساناً شتم معاوية، فإنه ضرب أسواطاً[4].

11 - وقال محمد بن عبد الله بن عمار الموصلي وغيره:

سئل المعافى بن عمران: أيهما أفضل معاوية أو عمر بن عبد العزيز؟ فغضب وقال للسائل: أتجعل رجلاً من الصحابة مثل رجل من التابعين، معاوية صاحبه وصهره، وكاتبه، وأمينه على وحي الله[5].

12 - أحمد بن حنبل رحمه الله:

سئل الإمام أحمد: ما تقول رحمك الله فيمن قال: لا أقول إن معاوية كاتب الوحي، ولا أقول إنه خال المؤمنين فإنه أخذها بالسيف غصباً؟ قال أبو عبد الله: هذا قول سوءٍ رديء، يجانبون هؤلاء القوم، ولا يجالسون، ونبين أمرهم للناس.

13 - الربيع بن نافع الحلبي رحمه الله:

قال: معاوية ستر لأصحاب محمد ﷺ، فإذا كشف الرجل الستر، اجترأ على ما وراءه[6].

14 - قال ابن أبي العز الحنفي:

وأول ملوك المسلمين معاوية وهو خير ملوك المسلمين[7].

---

(1) البداية والنهاية (11/ 449).
(2) المصدر نفسه (11/ 449).
(3) المصدر نفسه (11/ 449).
(4) المصدر نفسه (11/ 451).
(5) المصدر نفسه (11/ 450).
(6) البداية والنهاية (11/ 450).
(7) شرح العقيدة الطحاوية، ص: 722.

15 - القاضي ابن العربي المالكي رحمه الله:

تحدث ابن العربيّ عن الخصال التي اجتمعت في معاوية رضي الله عنه، فذكر منها: . . . قيامه بحماية البيضة، وسدّ الثغور، وإصلاح الجند، والظهور على العدوّ، وسياسة الخلق[1]، وقال في موضع آخر من كتابه العواصم من القواصم: فعمر ولاه، وجمع له الشّامات كلّها، وأقرّه عثمان، بل إنّما ولاّه أبو بكر الصّديق، لأنّه ولي أخاه يزيد، واستخلفه يزيد، فأقرّه عمر، فتعلّق عثمان بعمر وأقرّه فانظر إلى هذه السّلسلة ما أوثق عُراها[2]. وثبت أن رسول الله ﷺ استكتبه. . . ، ثمّ صالحه وأقرّ له بالخلافة الحسن بن عليّ سبط رسول الله ﷺ[3].

16 - يقول ابن تيمية رحمه الله:

واتفق العلماء على أن معاوية أفضل ملوك هذه الأمة، فإن الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة وهو أول الملوك، كان ملكه ملكاً ورحمة[4] وقال: فلم يكن من ملوك المسلمين خيراً منهم في زمان معاوية[5] إذا نسبت أيامه إلى أيام من بعده، أما إذا نسبت إلى أيام أبي بكر وعمر ظهر التفاضل، وذكر ابن تيمية قول الأعمش عندما ذكر عنده عمر بن عبد العزيز فقال: فكيف لو أدركتم معاوية؟ قالوا: في حلمه، قال: لا والله في عدله.

17 - وقال الذهبي رحمه الله:

أمير المؤمنين، ملك الإسلام[6] وقال: ومعاوية من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم وما هو ببريء من الهَنَات، والله يعفو عنه[7] وحسبك بمن يؤمره عمر ثم عثمان على إقليم - هو ثغر - فيضبطه ويقوم به أتم قيام ويرضى الناس بسخائه وحلمه. . . فهذا الرجل ساد وساس العالم بكمال عقله وفرط حلمه وسعة نفسه وقوة دهائه ورأيه[8].

18 - وقال ابن كثير رحمه الله:

وأجمعت الرعايا على بيعته في سنة إحدى وأربعين. . . فلم يزل مستقلاً بالأمر في هذه السنة التي كانت فيها وفاته، والجهاد في بلاد العدو قائم، وكلمة الله عالية، والغنائم تَرِد إليه

---

(1) العواصم من القواصم، ص: 210, 211.
(2) المصدر نفسه، ص: 82.
(3) سيرة عثمان بن عفان للصّلّابي، ص: 300، المدينة المنورة فجر الإسلام (2/ 216).
(4) الفتاوى (4/ 478).
(5) منهاج السنة (6/ 232) (3/ 185).
(6) سير أعلام النبلاء (3/ 120).
(7) المصدر نفسه (3/ 159).
(8) المصدر نفسه، (3/ 132-133).

من أطراف الأرض، والمسلمون معه في راحة وعدل، وصفح وعفو[1] وقال: كان حليماً وقوراً، رئيساً، سيداً في الناس، كريماً، عادلاً، شهماً[2]. وقال عنه أيضاً: كان جيد السيرة، حسن التجاوز جميل العفو، كثير الستر رحمه الله تعالى[3].

19 - قال ابن خلدون رحمه الله:

وقد كان ينبغي أن تلحق دولة معاوية وأخباره بدول الخلفاء وأخبارهم فهو تاليهم في الفضل والعدالة والصحبة. . . . والحق إن معاوية في عداد الخلفاء وإنَّما أخَّره المؤرخون في التأليف عنهم لأمرين:

الأول: إن الخلافة لعهده كانت مغالبة لأجل ما قدّمناه من العصبية التي حدثت لعصره، وأما قبل ذلك فكانت اختياراً واجتماعاً، فيميِّزوا بين الحالتين. فكان معاوية أوّل خلفاء المغالبة والعصبيَّة الذين يعبرّ عنهم أهل الأهواء بالملوك، ويشبِّهون بعضهم ببعض، وحاش لله أن يشبَّه معاوية بأحد ممَّن بعده. فهو من الخلفاء الراشدين ومن كان تلوه في الدين والفضل من الخلفاء المروانيَّة ممن تلاه في المرتبة كذلك وكذلك من بعدهم من خلفاء بني العباس، ولا يقال: إن الملك أدون رتبة من الخلافة، فكيف يكون خليفة ملكاً، واعلم أن الملك الذي يخالف بل ينافي الخلافة هي الجبروتيّة المعبَّر عنها بالكسروية التي أنكرها عمر على معاوية حين رأى ظواهرها، وأما الملك الذي هو الغلبة والقهر بالعصبية والشوكة فلا ينافي الخلافة ولا النبوَّة، فقد كان سليمان بن داود وأبوه صلوات الله عليهما نبيَّين ومَلِكيْن كانا على غاية الاستقامة في دنياهما وعلى طاعة ربِّهما ﷻ. ومعاوية لم يطالب ولا أبَّهته للاستكثار في الدنيا، وإنما ساقه أمر العصبية بطابعها لمّا استولى المسلمون على الدولة كلّها، وكان هو خليفتهم فدعاهم بما يدعو الملوك إليه قومهم عندما تستفحل العصبية وتدعو لطبيعة الملك وكذلك شأن الخلفاء أهل الدين من بعده، إذا دعتهم ضرورة الملك إلى استفحال أحكامه ودواعيه والقانون في ذلك عرض أفعالهم على الصحيح من الأخبار، لا بالواهي، فمن جرت أفعاله عليها فهو خليفة النبي ﷺ في المسلمين، ومن خرجت أفعاله من ذلك فهو من ملوك الدنيا، وإن سمّي خليفة بالمجاز.

الأمر الثاني: في ذكر معاوية مع خلفاء بني أمية دون الخلفاء الأربعة إنهم كانوا أهل نسب واحد، وعظيمهم معاوية فجعل مع أهل نسبه والخلفاء الأولون مختلفون الأنساب، فجعلوا في نمط واحد، وألحق بهم عثمان وإن كان من أهل هذا النسب للحوقه بهم قريباً في الفضل[4]. وكلام ابن خلدون ليس على إطلاقه وفيه نوع من المبالغة.

---

(1) البداية والنهاية (11/ 400).
(2) البداية والنهاية (11/ 397).
(3) المصدر نفسه (11/ 419).
(4) تاريخ ابن خلدون، ص: 528 , 529.

فهذه بعض أقوال علماء الأمة من الصحابة والتابعين ومن تلاهم على الثناء على معاوية ﷺ أنه أول ملوك المسلمين ومن خيارهم الذين غلب عدلهم على وظلمهم وما هو ببريء من الهنات والله يعفو عنه، وهو على دين كما قال عن نفسه: يقبل الله فيه العمل ويجزي فيه بالحسنات، ويجزي فيه بالذنوب إلا أن يعفو عمن يشاء، ولقد تعرّض معاوية ﷺ ودولته ودولة بني أمية عموماً لسهام بعض الكتّاب، وزعم بعضهم أنها دولة مدينة، وقال بعضهم: أنها كانت دولة عربية ولم تكن دولة إسلامية؛ بل قال بعضهم: إنها دولة علمانية لا صلة لها بالدين، ولا بالأخلاق، وهذه فرية تكذبها حقائق الدين وشواهد التاريخ، أما حقائق الدين، فقد بدأت دولة بني أمية 40 هـ من الهجرة، واستمرت إلى سنة 132 هـ. فقد شملت القرون الثلاثة التي هي خير قرون الأمة: قرن الصحابة، وقرن التابعين، وقرن أتباع التابعين[1] وهي التي جاءت بها الأحاديث الصحاح المستفيضة عن رسول الله ﷺ مثل حديث ابن مسعود: «**خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[2]، ومثله حديث عمران بن حصين: «**خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**» قال عمران: لا أدري: أذكر النبي بعد قرنين أو ثلاثة[3]، وكذلك حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً: قال: «**يأتي زمان يغزو فئام من الناس فيقال: فيكم من صحب أصحاب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح. ثم يأتي زمان، فيقال: فيكم من صحب من صحب أصحاب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم فيفتح**»[4].

ومعنى قول «**قرني**» أي أهل عصري. وهم الصحابة ثم قرن التابعين، ثم قرن الأتباع، وبعض الشرّاح حددوا القرن بزمن، فقال بعضهم: القرن أربعون سنة، وبعضهم قال: ثمانون سنة. وبعضهم جعله مائة سنة، وهو الذي اشتهر في الاستعمال الآن، وأمسى حقيقة عرفية. وتكون القرون المفضلة والموصوفة بالخيرية على هذا: ثلاثمائة سنة. وهذا غير منسجم مع منطق الواقع التاريخي، فالراجح تفسيره بما ذكرنا، من عصر الصحابة، وعصر التابعين، وعصر الأتباع[5] ومن الأحاديث الصحيحة التي يستدل بها على منزلة الدولة الأموية من الإسلام: ما رواه البخاري في صحيحه عن خالد بن مهران: أن عمير بن الأسود العنسي حدثه أنه أتى عبادة بن الصامت، وهو نازل في ساحة حمص، وهو في بناء له، ومعه أم حَرام (زوجه) قال عمر: حدثتنا أم حرام: أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «**أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا**». (أي فعلوا فعلاً وجبت لهم به الجنة) قالت أم حرام قلت: يا رسول الله،

(1) تاريخنا المفترى عليه، يوسف القرضاوي، ص: 62.
(2) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، رقم 1645.
(3) المصدر نفسه رقم 1646.
(4) المصدر نفسه رقم 1647.
(5) تاريخنا المفترى عليه، يوسف القرضاوي، ص: 63.

أنا فيهم؟ قال: «أنت فيهم». ثم قال النبي ﷺ: «أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم»، فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: «لا»[1]، ومدينة قيصر هي القسطنطينية، عاصمة الدولة البيزنطينية[2]. قال الشراح: في هذا الحديث منقبة لمعاوية؛ لأنه أول من غزا البحر، وذلك في خلافة عثمان، مازال معاوية يغريه بالغزو في البحر، حتى استجاب له، وبدأ الأسطول الإسلامي منذ عهد عثمان، ثم اتسع وازداد في عهد معاوية[3]، وفي هذه الغزوة مات أبو أيوب الأنصاري وكان في هذا الجيش رضي الله عنه، فأوصى أن يدفن عند باب القسطنطينية، والذي يهمنا هو أن هذا الجيش المغفور له بالجملة، كان في عهد بني أمية. إذ كانت هذه الغزوة سنة اثنين وخمسين من الهجرة النبوية، أي في عهد معاوية ومن نظر في سيرة معاوية بعد أن آلت إليه الخلافة، وبعد تنازل الحسن السبط رضي الله عنه له. وتأمل هذه السيرة بإنصاف: وجد الرجل حريصاً على إقامة الإسلام في شعائره وشرائعه، وعلى اتباع السنة النبوية في مجالات الحياة المختلفة.

المبحث الثاني

العلاقة بين الأمة ومعاوية كرئيس الدولة الإسلامية

للخليفة كما للأمة حقوق، كما أن على كل منها واجبات مطالب بها محاسب عليها وإليك شيء من الإيضاح:

أولاً: واجبات الخليفة:

بين الفقهاء الواجبات الملقاة على عاتق رئيس الدولة، حدّدوها التحديد الذي يوضح مدى ما هو موكول إليه من المهام ومهما اختلفت أساليب العلماء في التعبير عن هذه الواجبات وتعدادها، فإنه يمكن القول بأن هذه الواجبات في حقيقتها لاتتعدى المحافظة التامة على المصالح الدينية والدنيوية وإليك هذه الواجبات:

1 - العمل بشتى الوسائل على أن يكون الدين مصون عن كل ما يسيء إليه، سواء في هذا ما يتعلق بالعقيدة الإسلامية، أو ما يتعلق بغيرها، وهذا الواجب ما عبر عنه الماوردي قائلاً: حفظ الدين على أصوله المستقرة، وما أجمع عليه سلف الأمة فإن نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنه أوضح له الحجة، وبين له الصواب، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود، ليكون الدين محروساً من خلل والأمة ممنوعة من زلل[4].

---

(1) البخاري، رقم: 2924.
(2) تاريخنا المفترى عليه، يوسف القرضاوي، ص: 63.
(3) المصدر نفسه، ص: 63.
(4) الأحكام السلطانية، ص: 15.

2 - نصب القضاة ليحكموا بين الناس بشريعة الله، حتى لا يكون هناك معتدٍ لا يخاف جزاء، ولا مظلوم لا يستطيع وصولاً إلى حق كفله الشارع له[1]، وسوف نتعرف على مؤسسة القضاء في عهد الدولة الأموية في هذا الكتاب.

3 - توفير الأمن لكل آحاد الأمة، حتى يستطيع كل فرد أن ينصرف إلى سبيل عيشه آمناً على نفسه وأهله وماله.

4 - إقامة الحدود التي بينها الله سبحانه على مقترفي كل جريمة تستأهل حداً، لا يفرق في ذلك بين شريف وحقير حتى تصان محارم الله من الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده عن إتلاف واستهلاك كما هو تعبير الماوردي[2].

5 - إحاطة ثغور البلاد بسياج منيع من القوة، حتى لا يجد أعداء الإسلام ثغرة يتسللون منها إلى ضرب الأمة على حين غفلة، فيجب على رئيس الدولة أن يعمل على استكمال كل الوسائل التي تكلف الأمة الحماية التامة من شرور الأعداء.

6 - جهاد أعداء الإسلام الذين عاندوا دعوتهم إليه، حتى يدخلوا في الإسلام أو يدخلوا في الذمة.

7 - جباية الأموال المستحقة، سواء أكانت هذه الأموال صدقات أم فيئاً وإخضاع ذلك إلى القواعد التي أوجبها الشارع نصاً واجتهاداً من غير زيادة أو نقصان في الجباية، إذ أن الزيادة تفضي إلى خسران من تجب عليهم الزكوات، والنقصان مفضٍ إلى تضييق مجال الصرف على الفقراء والمساكين والعاملين ونحوهم.

8 - تقدير الحقوق والرواتب المستحقة في بيت مال المسلمين، كالإعانات الاجتماعية للأسر المحتاجة، ورواتب الجند والموظفين، والعمل على إرساء قواعد تكون ضابطة لكل ما يتصل بهذا الواجب.

9 - اختيار الأكفاء الذين يثق في مقدرتهم ودينهم وصلاحهم للمناصب القيادية التي توكل إليهم، حتى يسير دولاب الأعمال بيد الأمناء الذين يخافون الله ولا يثبون على حقوق الناس.

10 - الإشراف بنفسه على ما هو متصل بما يجب عليه نحو الأمة، ولا يترك الأمور تسير بدون إشراف مباشر منه، إذ أن كل تقصير من أيٍّ من عماله الذين وكل إليهم بعض الأمور، منسوب إليه متحمل خطئه، محاسب عليه أمام الله إن قصر في المتابعة، فإن الإمام راعٍ وهو مسؤول عن رعيته كما بين ذلك رسول الله ﷺ.

---

(1) رئاسة الدولة في الفقه الإسلامي، ص: 356.

(2) الأحكام السلطانية، ص: 16، رئاسة الدولة في الفقه الإسلامي، ص: 357.

11 - الشورى، لأنها من سمات الحكم الإسلامي[1]. وسوف نرى بإذن الله تعالى كيف تعامل معاوية ﷺ والخلفاء الأمويين من بعده مع هذه الواجبات، ولا نريد أن نستعجل الأحداث، وسنقف مع كل واجب من هذه الواجبات في موقفه ونرى قرب الخلفاء الأمويين وبعدهم من تطبيق هذه الواجبات.

ثانياً: حقوق الخليفة:

إن الخليفة له حقوق على الأمة من شأنها أن تعينه على القيام بما هو موكول إليه من المهام وقد بين علماء الإسلام هذه الحقوق وأهمها:

1 - طاعته والانقياد له في كل ما أمر به ونهى عنه ما دامت هذه الأوامر والنواهي في المعروف ولم تتعارض مع الأحكام التي بينتها شريعة الإسلام، فما دام الخليفة أو رئيس الدولة قد التزم في أوامره ونواهيه جانب الشرع فلم يحد في ذلك عن الحدود التي رسمتها له الشريعة، فله حق ولاء المواطنين جميعاً، سواء في ذلك أهل الحل والعقد الذين بايعوه رئيساً للأمة، وسائر المواطنين الذين يلزمهم الانقياد له بمجرد تمام هذه البيعة.

2 - القيام بنصرته إذا احتاج الأمر إلى ذلك، فما دام يسير في حكمه على طريق الحق فقد وجب على سائر الأمة نصرته على البغاة وكل من رفع عليه السلاح، . . . لأن نصرة الإمام الحق في الواقع ما هي إلا نصرة للمسلمين وتأييد له في العمل على أن يكون الدين قائماً وكف للمعتدين عن كل ما يمكن أن يصدر عنهم من جرائم.

3 - جعل راتب له مع مخصصات له، تكفيه ومن يعوله، فإن رئيس الدولة سيشغل نفسه بواجبات الرياسة التي ستستحوذ على وقته، مما لا يترك له فرصة السعي في اكتساب رزقه، فيجب أن يجعل له راتب يغنيه ويليق بهذا المنصب بحيث لا يكون فيه تقتير ولا إسراف لأن رواتب الولاة والقضاة من أموال المسلمين التي يحتاط في وجوه صرفها.

4 - إخباره بأحوال من ولاهم المناصب العامة كالولاة والقضاة إذا انحرفوا عن الطريق الذين كلفوا بسلوكه، وذلك لأن الإمام مكلف شرعاً بمتابعة أعمال هؤلاء لإصلاح ما اعوج من أفعالهم وتنبيههم إلى ما غفلوا عنه من وجوه المصلحة، وهو محاسب أمام الله على ما ارتكبه هؤلاء من أخطاء في حق الله، والأمة إذا هو قصر في منع ذلك، ولا طاقة له على متابعة أعمالهم ومراقبة سيرهم إلا إذا عاونته الأمة في ذلك.

5 - تقديم كافة المساعدات إليه إن احتاج إلى ذلك في أداء ما تحمله من أعباء مصالح

(1) رياسة الدولة في الفقه الإسلامي، ص: 358.

الأمة لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 2] وولاة الأمور أحق من أعين على ذلك[1]. والأمة في عمومها لم تبخل على أمير المؤمنين معاوية بحقوقه وعلى الخلفاء الذين جاءوا من بعده ولم يخل الأمر من ثورات ضد الخلفاء سنبينها في موضعها بإذن الله تعالى.

ثالثاً: عاصمة الدولة الأموية وأحاديث الرسول في فضائل الشام:

كانت الشام إحدى الولايات الهامة في الإمبراطورية الرومانية الشرقية «البيزنطية»، بل كانت لقربها من بيت المقدس، وتاريخها القديم، إحدى المراكز الحضارية في هذه الإمبراطورية، وكان العرب قبل الإسلام ينظرون إليها نظرة كبيرة، لما تحتويه من حضارة، فضلاً عما بها من خيرات وخضرة وأسواق، وتعتبر مدينة دمشق المدينة الأولى في بلاد الشام، فهي قاعدتها ومدينتها العظمى، ولعبت دوراً كبيراً في تاريخ المنطقة، لذلك اتخذها الحاكم الروماني قاعدة حكمه، ولما دخل الإسلام الشام ودمشق خاصة، حافظ عليها، واحتفظ الولاة لها بميزاتها وظل معاوية الوالي يعتني بها طوال فترة ولايته عليها، وأقام علاقات وطيدة مع سكانها[2]، وعرف أهمية القبائل اليمنية في دمشق والشام، فتزوج من إحداها وهي بني كلب وأنجب من زوجته الكلبية ابنه يزيد، فضمن ولاءهم له ولأبنائه من بعده، لأن الخؤولة من أبرز ما تتحزب له القبائل العربية، هذا فضلاً عن أن التصاهر عند العرب بمثابة التحالف السياسي[3]، وقد كان معاوية ذكياً في اعتماده على القبائل اليمنية بدمشق والشام[4]، ولما قامت الدولة الأموية، رأى معاوية أن الدولة الإسلامية توسعت وامتدت شرقاً وغرباً فلم يجد أفضل من دمشق عاصمة للخلافة الأموية وذلك لأنها تقع بين جزئي العالم الإسلامي؛ الجزء الشرقي الذي يشمل العراق وفارس، والجزء الغربي الذي يشمل مصر والمغرب، فضلاً عن أن القبائل التي ارتبطت به أيدته ودعمت موقفه وصارت يده الطولى في تدعيم حكمه، أي أنها كانت القوة العسكرية والسياسية التي استند عليها الحكم والدولة الأموية، كما قدم له سكان البلد ما يمكن أن يقدموه من خبرة وعمل إداري[5]، فقد وجد معاوية في دمشق تقاليد عريقة في الحكم والإدارة، كما وجد جهازاً إدارياً متمرساً ساعده على تأسيس مهمته في فترة التأسيس هذه التي لا تحتاج الإدارة الطيبة فحسب، بل الخبرة والمران اللذين وفرهما له جهاز الموظفين الذين كانوا يعملون في ظل الإدارة البيزنطية في الميدانين الإداري والمالي، كما أنه لابد لنا أن

(1) رياسة الدولة في الفقه الإسلامي، ص: 370 إلى 374.
(2) رجال الإدارة في الدولة الإسلامية العربية، ص: 135، 136.
(3) الدولة الإسلامية في العصر العباسي، ص: 42.
(4) المصدر نفسه، ص: 42.
(5) رجال الإدارة في الدولة الإسلامية العربية، ص: 136.

نلاحظ أن حظ الشام من الحضارة كان أوفر من حظ الأمصار الأخرى، فالقبائل العربية التي هاجرت إليها واستقرت فيها قبل الفتح كانت قد اعتادت فكرة الحكم المركزي وفكرة الدولة عموماً، على عكس عرب العراق مثلاً الذين لم يتقبلوا هذه الفكرة بسهولة، وينطبق هذا على من سكن العراق منهم قبل الفتح وبعده، فالذين سكنوا العراق قبل الفتح كانوا في خصومة وصراع دائمين مع الحكم الفارسي[1]، وسكان بلاد الشام كانوا قد اعتادوا الخضوع والتعايش مع البيزنطيين، كما أن العرب الذين هاجروا إلى الشام بعد الفتح لم يعيشوا في معسكرات مستقلة، كما كانت الحال في العراق (البصرة والكوفة)، بل عاشوا جنباً إلى جنب مع السكان المحليين والقبائل التي كانت تقطن الشام قبلاً، وقد ساعد هذا الاختلاط على كسر حدة التمرد القبلي[2] وقد ساعد على تحقيق انتصارات معاوية في الخارج الجيش الشامي الذي جمعه ونظمه ودربه منذ أن كان والياً، والذي أغدق عليه العطاء، ولم يبخل عليه بكل ما يوفر له سبل الرضا والإخلاص بعد أن غدا خليفة وتعددت لقاءاته في البر والبحر مع الإمبراطورية البيزنطية، وقد ساعدت هذه اللقاءات المستمرة على إعطاء جيش الشام فرصاً كثيرة للتدريب العملي وقدمت له الخبرة اللازمة[3]، كما كان لأحاديث رسول الله ﷺ أثرها في هجرة الناس للشام، واعتزاز أهلها بالإسلام وحرصهم على زعامة العالم الإسلامي، فالنبي ﷺ ميز أهل الشام بالقيام بأمر الله دائماً إلى آخر الدهر، وبأن الطائفة المنصورة فيهم إلى آخر الدهر، فهو إخبار عن أمر دائم مستمر فيهم مع الكثرة والقوة[4]، وقد كان معاوية يحتج لأهل الشام بحديث رسول الله ﷺ حيث قال: «**لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم، حتى تقوم الساعة**»[5]، فقام مالك بن يخامر يذكر أنه سمع معاذاً يقول: وهم بالشام، فقال معاوية: وهذا مالك بن يخامر يذكر أنه سمع معاذاً يقول: وهم[6] بالشام، وما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يزال أهل الغرب ظاهرين**»[7]، قال الإمام أحمد: وأهل الغرب هم أهل الشام[8]. وذلك أن

(1) تاريخ خلافة بني أمية، نبيه عاقل، ص: 62.
(2) المصدر نفسه، ص: 62 الجذور التاريخية للأسرة الأموية د. إحسان صدقي العمد، ص: 94.
(3) رجال الإدارة في الدولة الإسلامية العربية، ص: 136.
(4) الفتاوى (4/ 275).
(5) البخاري، رقم: 7311، مسلم، رقم: 1920، 1921.
(6) الفتاوى (4/ 273) مالك بن يخامر ذكره ابن حبان في الثقات، تهذيب التهذيب (1/ 23,25).
(7) مسلم في الإمارة.
(8) الفتاوى (4/ 273).

النبي ﷺ كان مقيماً بالمدينة فما يغرب عنها فهو غربه، وما يشرق عنها فهو شرقه[1]... فقد أخبر أن الطائفة المنصورة القائمة على الحق من أمته بالمغرب وهي الشام وما يغرب عنها... وكان أهل المدينة يسمّون أهل الشام، أهل المغرب، ويقولون عن الأوزاعي: إنه إمام أهل المغرب[2]، فإذا دلت النصوص على أن الطائفة القائمة بالحق من أمته التي لا يضرها خلاف المخالف، ولا خذلان الخاذل هي بالشام، فهذا لا يعارض قوله ﷺ: «تقتل عماراً الفئة الباغية»[3]، وقوله في الخوارج ﷺ: «تقتلهم أولى الطائفتين بالحق»[4]، ولا ريب أن هذه النصوص لابد من الجمع بينها، فيقال، أما قول ﷺ: «لا يزال أهل الغرب ظاهرين»[5]. ونحو ذلك مما يدل على ظهور أهل الشام وانتصارهم، فهذا واقع وهذا هو الأمر فإنهم ما زالوا ظاهرين منتصرين[6]، وأما قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله»[7]، والذي هو ظاهر، فلا يقتضي ألا يكون فيهم من فيه بغي ومن غيره أولى بالحق منهم، بل فيهم هذا وهذا[8] وأما قوله: تقتلهم أولى الطائفتين بالحق فهذا دليل على أن علياً ومن معه كان أولى بالحق إذ ذاك من الطائفة الأخرى، وإذا كان الشخص أو الطائفة مرجوحاً في بعض الأحوال لم يمنع أن يكون قائماً بأمر الله، وأن يكون ظاهراً بالقيام بأمر الله عن طاعة الله ورسوله، وقد يكون الفعل طاعة وغيره أطوع منه وأما كون بعضهم باغياً في بعض الأوقات، مع كون بغيه خطأ مغفوراً له، أو ذنباً مغفوراً، فهذا أيضاً لا يمنع ما شهدت به النصوص؛ وذلك أن النبي ﷺ أخبر عن جملة أهل الشام وعظمتهم، ولا ريب أن جملتهم كانوا أرجح في عموم الأحوال[9]، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفضلهم في مدة خلافته على أهل العراق، حتى قدم الشام غير مرة وامتنع من الذهاب إلى العراق، واستشار فأشار عليه أنه لا يذهب إليها، وكذلك حين وفاته لما طعن أدخل عليه أهل المدينة أولاً وهم كانوا إذ ذاك أفضل الأمة، ثم أدخل عليه أهل الشام، ثم أدخل عليه أهل العراق، وكانوا آخر من دخل عليه[10]. وكذلك الصّديق كانت عنايته بفتح الشام أكثر من عنايته بفتح العراق حتى قال: لَكَفْرُ الشام أحب إليّ من فتح مدينة العراق [11]، والنصوص التي في كتاب الله وسنة رسوله وأصحابه في فضل الشام وأهل الغرب على نجد والعراق وسائر أهل المشرق، أكثر من أن تذكر هنا، بل عن النبي ﷺ من النصوص الصحيحة في ذم المشرق وإخباره بأن الفتنة ورأس الكفر منه ماليس

(1) المصدر نفسه (4/ 273).
(2) المصدر نفسه (4/ 273).
(3) البخاري، رقم: 447.
(4) مسلم في الزكاة.
(5) مسلم في الإمارة.
(6) الفتاوى (4/ 274).
(7) البخاري، رقم: 7311.
(8) الفتاوى (4/ 274).
(9) الفتاوى (4/ 274).
(10) المصدر نفسه (4/ 275).
(11) المصدر نفسه (4/ 275).

هذا موضعه، وإنما كان فضل المشرق عليهم بوجود أمير المؤمنين علي، وذلك كان أمراً عارضاً ولهذا لما مات علي ﷺ أظهر منهم من الفتن، والنفاق، والردة، والبدع، مايعلم به أن أولئك كان أرجح[1]. وكذلك - أيضاً - لاريب أن في أعيانهم من العلماء والصالحين من هو أفضل بكثير من أهل الشام، كما كان علي وابن مسعود، وعمار وحذيفة ونحوهم، أفضل من أكثر من بالشام من الصحابة، لكن مقابلة الجملة وترجيحها لا يمنع اختصاص الطائفة الأخرى بأمر راجح وهذا يبين رجحان الطائفة الشامية من بعض الوجوه مع أن علياً ﷺ كان أولى بالحق ممن فارقه، ومع أن عماراً قتلته الفئة الباغية - كما جاءت به النصوص - فعلينا أن نؤمن بكل ما جاء من عند الله، ونقر بالحق كله، ولا يكون لنا هوى، ولانتكلم بغير علم، بل نسلك سبل العلم والعدل، وذلك هو اتباع الكتاب والسنة، فأما من تمسك ببعض الحق دون بعض، فهذا منشأ الفرقة والاختلاف[2].

رابعاً: أهل الحل والعقد في عهد معاوية ﷺ:

كان المجتمع الإسلامي في عصر الراشدين يتطور تطوراً سريعاً وخطيراً بشكل يهدد المحافظة على السمات الأساسية لحكمهم والتي تظهر في ذلك الحب والانسجام والحرص المتبادل بين الخليفة والرعية وخوف الله في معاملة بعضهم للبعض، وقد تمثل ذلك التطور في تقلص دور أهل الحل والعقد المقيمين في المدينة بوفاة معظمهم أو بتفرقهم في الأمصار، وباكتساب تلك الأمصار مكانة ضخمة تفوق مكانة الحجاز مقر الخلافة نتيجة نمو دور القبائل العربية التي أسلمت متأخراً ولكنها حملت على أكتافها عبء الفتوحات الإسلامية الكبرى، التي أدت إلى إثراء المجتمع الإسلامي بصورة لم يعرفها من قبل، تغيرت معها بعض النفوس والأخلاق[3]، وبدأت تدريجياً تتغير بعض المفاهيم، كمفهوم أهل الحل والعقد، فلم يعودوا هم أهل بدر، أو جماعة السابقين إلى الإسلام في المدينة، التي تقلصت أعدادها بمضي الزمن، وبرز إلى ساحة التأثير والفاعلية زعماء الأمصار، وزعماء الشام من بينهم، فحين نحتكم إلى أحداث التاريخ نجدها تؤكد قدرة أهل الأمصار آنذاك على الحسم السياسي، وعجز أهل المدينة عن ذلك، ثم تؤكد بعد ذلك تميز أهل الشام بقدر هائل من الطاعة والتوحد الاجتماعي والتعود على الخضوع لنظم الدولة، وأساليب الإدارة وأنماط الحضارة، وقد مكنتها هذه المؤهلات من فرض اختيارها على العراق وسائر الأمصار الإسلامية حتى بايعت معاوية، ثم استطاعت الاحتفاظ بهذه القدرات أكثر من تسعين عاماً هي عمر الدولة الأموية.. مما يؤكد أن قادتها أصبحوا هم بحكم الواقع السياسي جل أهل الحل والعقد في المجتمع

(1) الفتاوى (4/ 275).
(2) المصدر نفسه (4/ 275).
(3) الدولة والمجتمع في العصر الأموي، ص: 127.

الإسلامي والقادرين على اختيار الخليفة، وإقناع بقية الأمصار بذلك الاختيار ـ إن سلماً أو عنفاً ـ في ذلك المجتمع الذي أصبحت تحكمه عصبيات مختلفة الرغبات والأهواء والمطامع[1].

1 - رأي الفقهاء في معنى أهل الحل والعقد:

وحين نحتكم إلى أقوال علمائنا في معنى أهل الحل والعقد نجدهم يختلفون إلى عدة أقوال[2]، ويذكرون مصطلحات متعددة منها:

أ ـ أولو الأمر: وهو مصطلح شرعي جاء بنص القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: 59] وقد اختلف في المراد بهم على أقوال من أشهرها:

- أنهم الأمراء، ورجحه الإمام الطبري[3]، وقال النووي: هو قول جمهور السلف والخلف[4].

- أنهم العلماء وبه قال بعض السلف منهم: جابر بن عبد الله والحسن البصري، والنخعي وغيرهم.

- أنهم أصحاب محمد ﷺ.

- أنهم أبو بكر وعمر.

- أنها عامة في كل أولي الأمر والعلماء، ومال إليه الإمام ابن كثير[5]، وابن القيم[6]، والشوكاني[7] وغيرهم.

- أنهم العلماء والأمراء والزعماء وكل من كان متبوعاً وهو رأي ابن تيمية[8]، ومحمد عبده[9]، وقال: إنهم هم أهل الحل والعقد[10]، ولعل القولين الخامس والسادس هما الأقرب إلى الصواب، وليس بينهما فرق كبير[11].

ب ـ العلماء: والمراد بهم علماء الشريعة: وهو لفظ قرآني: قال سبحانه ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ

(1) الدولة والمجتمع في العصر الأموي، ص: 128.
(2) المصدر نفسه، ص: 128.
(3) تفسير الطبري (8/ 502) تحقيق محمود شاكر.
(4) شرح النووي على صحيح مسلم (12/ 223).
(5) تفسير ابن كثير (1/ 530).
(6) الرسالة التبوكية، ص: 41.
(7) فتح القدير للشوكاني (1/ 481).
(8) الحسبة، ص: 185.
(9) تفسير المنار (5/ 181).
(10) أهل العقد والحل، عبد الله الطريقي، ص: 12.
(11) المصدر نفسه.

مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾ [فاطر: 28] وربما جاء بلفظ ﴿وَأُوْلُوا الْعِلْمِ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: 18]. وفي السنة النبوية جاء هذا المصطلح في أحاديث لا تكاد تحصر ومن ذلك الحديث المشهور: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن بموت العلماء»[1].

ج ـ أهل الاختيار: وهم الذين يوكل إليهم اختيار الإمام ومبايعته، وهم أهل الحل والعقد[2]، وهو مصطلح اجتهادي اصطلح عليه بعض أهل العلم[3].

د ـ أهل الاجتهاد وهم: العلماء الذين بلغوا درجة الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، ويكونون مؤهلين للأعمال المهمة: كالإمامة الكبرى، والقضاء، والفتوى ونحو ذلك، وممن أطلق هذا المصطلح: البغدادي[4]، والقرطبي[5].

هـ ـ أهل الشورى وهم: الذين يستشارون في أمر المسلمين وفق الآية الكريمة، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159] وقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38].

و ـ أهل الشوكة وهم: أصحاب القدرة والسلطان، لتوافر القدرة والبأس لديهم، وممن استعمل هذا المصطلح ابن تيمية[6].

ز ـ أهل الرأي والتدبير وهم: من يتسمون بالعقل والفكر الناضج مع القدرة على تصريف الأمور وتسييرها، وممن استعمل هذا المصطلح ابن عابدين[7].

فأهل الحل والعقد هم الذين لهم القدرة على عقد نظام جماعة المسلمين في شؤونهم العامة، والسياسية، والإدارية، والتشريعية، والقضائية، ونحوها ثم حل هذا النظام لأسباب معينة ليعاد ترتيب هذا النظام وعقده من جديد[8].

والذي تحقق في عهد معاوية رضي الله عنه أن أهل الحل والعقد في دولته كانوا هم الولاة، وزعماء القبائل، وقادة الجيوش ونحوهم، وتركزت الشوكة والقوة الفعلية في أهل الشام، حيث كانوا قادرين على الاختيار وتحقيق إرادتهم، وإمضاء رغبتهم على مخالفيهم، وهذا ما تحقق في

---

(1) مسلم، رقم: 13.
(2) الموسوعة الفقهية، إصدار وزارة الأوقاف بالكويت (7/ 115).
(3) أهل الحل والعقد، عبد الله الطريقي، ص: 13 وهذا الكتاب فريد في بابه.
(4) أهل الحل والعقد، ص: 13، أصول الدين 279.
(5) تفسير القرطبي (1/ 265).
(6) منهاج السنة (1/ 550).
(7) حاشية ابن عابدين (4/ 263).
(8) أهل الحل والعقد، ص: 15.

ذلك الظرف التاريخي في أهل الشام، وإذا أردنا أن نكون أكثر إنصافاً، قلنا إنه كان يجب أن تتسع دائرة أهل الحل والعقد هذه لتشمل بجانب زعماء الشام بقية زعماء الأمصار الإسلامية في العراق والحجاز ومصر وغيرهم، وأن تضم بجوار أصحاب العصبيات القوية، أصحاب الرأي من علماء الأمة وأهل الديانة فيهم، وأن يوكل إلى هذه الطائفة منهم اختيارالخليفة أو عزله، علاوة على الفصل في المسائل المهمة في حياة الأمة.. ولو حدث ذلك في مسيرة الدولة الأموية لتجنبت الأمة كثيراً من الاختلاف وإراقة الدماء.. ولكن الذي حدث فعلاً هو انفراد أهل الشام باختيار الخلفاء في العصر الأموي من الأسرة الأموية ذاتها، وكانت بداية ذلك هي البيعة ليزيد بن معاوية بولاية العهد من أبيه، وبعد خطوب شتى أصبح تسلسل الخلفاء من البيت الأموي أمراً واقعاً، رضيت بذلك بقية الأمصار أم عارضت[1]. وسيأتي الحديث عن ولاية العهد في حينه بإذن الله تعالى.

خامساً: الشورى في عهد معاوية ﷺ:

عندما آلت الخلافة إلى بني أمية، لم يكن معاوية بن أبي سفيان ممن يجهل فوائد الشورى ويهمل الأخذ بها ، وما كان يصدر في المهمات إلا عن مشورة، فقد كان يشاور ذوي الرأي من الولاة ووجوه الناس وأشراف القوم وأهل العلم وكان ذلك سنة من جاء بعده من الخلفاء من بني أمية، وكان من كبار مستشاري معاوية ﷺ عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وكان يستشير الوفود التي كانت تأتيه[2]، وكان الناس يتكلمون بحرية فيعرضون آراءهم ، ويهتم الخليفة بها كل الاهتمام، ويناقشهم فيها ويحقق ما يمكن تحقيقه منها والحكم يعتمد على مستشارين أكفاء وكتّاب قادرين أطلقت يدهم في العمل، ومنحهم الخليفة ثقته، وشدّهم بسلطانه، والحكم لم يكن متمركزاً في شخص الخليفة ، فمملكته واسعة ولا يستطيع أن يضطلع بكل أمر، وهو يرسل ولاته على الأقطار ويطلق لهم اليد في شؤونها، وهو لا يولي إلا من يثق به، ولا يعطي السلطان إلا لمن لا يخشاه[3]، وولاته يستشيرهم في حدود معينة. وأما أمر الخلافة فحصر في بني أمية، وأصبح أمرها خاصاً بالبيت الأموي، يفتي فيها بالمجامع الأموية خاصة من دون الناس، وكان الخلفاء من بني أمية يرجعون في شورى استخلاف السلطان ورد الطامعين به إلى الجماعة الأموية غالباً[4].

ومن هنا يمكن القول بوجود نوعين من الشورى في عهد بني أمية: أولهما شورى تتعلق بالأمور والمصالح العامة، وكان الخلفاء من بني أمية يرجعون فيها إلى ذوي الرأي من أشراف

(1) الدولة والمجتمع في العصر الأموي، ص: 128. (3) الدولة الأموية، يوسف العش، ص: 139.
(2) في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص: 55. (4) في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص: 56.

القوم والولاة وغيرهم، وثانيها شورى تتعلق بالسلطان خاصة، وكان الخلفاء من بني أمية يفزعون فيها إلى آل بينهم ويقضون فيها بينهم[1]. وقيادة معاوية للدولة لم تكن فردية خالصة، فاللامركزية في الحكم والإدارة في الأغلب، ومشاركة الرجال من أهل الرأي والخبرة في حمل المسئولية والقيام بأعباء الدولة في السلم والحرب وفي المركز والولايات، ووجود الإسلام في حياة الفرد والمجتمع والدولة سلوكاً ونظام حكم منذ عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، تقلل من مظهر القيادة الفردية ومساوئها، وتعزز مظهر الشورى وغلبة الاتجاه العام الثابت في السياسة والقيادة والإدارة وتصريف الأمور ورعاية المصالح[2]، كما أن تحول الخلافة الراشدة إلى ملك وراثي لم يكن يعني تحولاً كاملاً عن شورى الراشدين أو ارتداداً عن أوامر الإسلام ومنهجه في الحكم، وقد كان لذلك ما يبرره من تطور اجتماعي وسياسي ولقد بقيت ـ في عهد معاوية ـ والعصر الأموي ـ كما يقرر ابن خلدون ـ معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه، والجري على مذاهب الحق، ولم يظهر التغير إلا في الوازع الذي كان ديناً ثم انقلب عصبية وسيفاً، وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الأول من خلفاء بني العباس إلى الرشيد وبعض ولده، ثم ذهبت معاني الخلافة ولم يبق إلا اسمها[3]. وما ذهب إليه ابن خلدون ليس على إطلاقه ففي عهد الدولة العثمانية في زمن محمد الفاتح انتعشت بعض معاني ومقاصد الخلافة، من الفتوحات، والدعوة، وإعزاز الإسلام، والعدل، ولم يذم الشرع العصبية أو الملك لما كان القصد منها إقامة الدين، وإظهار الحق، وقد سأل سليمان عليه السلام ربه فقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: 35]، لما علم من نفسه أنه بمعزل عن الباطل في النبوة والملك[4]، وعلى ذلك فإن «الملك الذي يخالف بل ينافي الخلافة هو الجبروتية»[5]، التي يقصد بها قهر الناس بغير حق، ولم يكن ذلك شأن معاوية في خلافته، وقد استرعى انتباه بعض فقهائنا ومؤرخينا ذلك القرب الشديد بين مقاصد خلافة معاوية ومقاصد خلافة الراشدين، لذلك فقد رأى ابن تيمية: . . فهذا يقتضي أن شوب الخلافة بالملك جائز في شريعتنا، وأن ذلك لا ينافي العادل، وإن كانت الخلافة المحضة أفضل[6]، ولن نبتعد عن الحقيقة إذا قلنا إن معاوية وبعض خلفاء بني أمية كان يود لو سار سيرة الراشدين كاملة، ولكنهم كانوا غير قادرين على ذلك في تفاعلهم مع

(1) في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص: 57.
(2) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 102.
(3) مقدمة ابن خلدون، نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 275.
(4) مقدمة ابن خلدون، نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 275.
(5) المصدر نفسه.
(6) الفتاوى (35/ 18).

أحوال رعيتهم وظروف عصرهم، وإن ذلك الأفق العالي والمثل الرفيع الذي قدمه الخلفاء الراشدون للسياسة الإسلامية والإنسانية كان يعمل تأثيره الجذاب عند بعض الخلفاء والرعية على السواء، ولكنه كان أيضاً يستعلي على قدراتهم، فيجهدون أنفسهم لتحقيقه، ثم يعودون إلى جذبة الواقع مقرين بصعوبة المحاولة والتجربة[1]، ولقد سأل معاوية يوماً ولده وولي عهده يزيد: كيف سيعمل بعد استخلافه؟ فقال: أعمل فيهم عمل عمر بن الخطاب، فتبسم معاوية وقال: والله لقد جهدت أن أعمل فيها عمل عثمان فلم أقدر، أتعمل أنت فيهم بعمل عمر بن الخطاب[2]؟، ولا يعني ذلك أن العودة إلى صفاء الحياة في عصر الخلفاء الراشدين أمر مستحيل، ولكن لا يأتي به الحاكم وحده وإن صلحت نيته، وعظمت عزيمته، بل لا بد من تحقيق ذلك القدر من التوافق والانسجام بين الراعي والرعية حيث يتعاون الجميع على تحقيق ذلك المجتمع الطيب، وطريق ذلك طويل وشاق ويحتاج إلى أجيال من الدعاة والحكام الذين يبذلون جهدهم لتربية الرعية على كمال الإيمان، ويعطون القدوة في ذلك والمثل، ويستفرغون في ذلك وذاك وقتهم وجهدهم[3]، وقد كان ابن تيمية يعبر عن هذه الحقيقة حين يرى أنه إن ساء الحكم في مجتمع ما كان ذلك لنقص في الراعي والرعية[4] معاً. إن الشورى في عهد معاوية والدولة الأموية تقلصت عمّا كانت عليه في عهد الخلافة الراشدة وبقيت في عهد معاوية بعض جوانبها ولم تتقدم كلياً كما يطرح البعض.

سادساً: حرية التعبير في عهد معاوية ﷺ:

المعارضة السلمية: كان معاوية ﷺ يفرق بين المعارضة السلمية والمسلحة فهو يطلق حرية الكلام والتعبير عن الرأي ما دام ذلك في حدود التعبير عن الرأي، أما إذا انقلب الأمر إلى حمل السلاح وسلّ السيوف، فإنه لا يجد مفراً من مواجهة هذه الثورات كما فعل مع الخوارج ـ وسيأتي بيان ذلك بإذن الله تعالى ـ فقد روي عن معاوية أنه قال: إني لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا[5]. وقال عامله على العراق زياد بن أبيه في خطبته لأهل البصرة: إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السلّ من بغضي لم أكشف له قناعاً ولم

(1) الدولة الأموية المفترى عليه، ص: 276.

(2) البداية والنهاية نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 276.

(3) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 277.

(4) مجموع الفتاوى (35/ 20) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 277.

(5) ذكر الدكتور خالد الغيث في كتابه القيم «مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري»، ص: 281، 282: أن في إسناده هذه الرواية اجتمعت فيه علتان، الأولى: أن عبد الله بن صالح الجهني لم يدرك عبد الملك بن عمير، وذلك أن مولد عبد الله بن صالح كان بعد وفاة عبد الملك بن عمير بسنة، والعلة الثانية: تشيع هشام بن سعد، وكراهية الشيعة لبني أمية أمر معلوم، لذا لا يؤخذ منه في هذا المقام لأنه يروي ما يوافق هواه.

أهتك له ستراً، حتى يبدي لي صفحته، فإذا فعل لم أناظره[1]، ويقول عن أحد معارضيه: لو علمت أن مخ ساقه قد سال من بغضي ما هجته حتى يخرج علي[2]. وإليك الكثير من المواقف التي تدل على حرية التعبير، وحق المعارضة السلمية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمعاوية وكيف كان يستقبل تلك الانتقادات.

1 - أبو مسلم الخولاني:

فقد كان ﷺ من العلماء الربانيين وكان ممن لا يجامل ولا يداهن، فقد قام أمام معاوية فوعظه وقال: إياك أن تميل على قبيلة من العرب فيذهب حيفك بعدلك[3]. وكان يذكر معاوية بمسئولياته تجاه رعيته ويحثه على أداء حقوقه، فقد دخل ذات يوم على معاوية فقال: السلام عليك أيها الأجير. فقال الناس: الأمير. فقال معاوية: دعوا أبا مسلم فهو أعلم بما يقول. قال أبو مسلم: إنما مثلك مثل رجل استأجر أجيراً فولاه ماشيته، وجعل له الأجر على أن يحسن الرعية، ويوفر جزازها وألبانها، فإن أحسن رعيتها ووفر جزازها حتى تلحق الصغيرة، وتسمن العجفاء، أعطاه أجره وزاده من قبله زيادة، وإن هو لم يحسن رعيتها وأضاعها حتى تهلك العجفاء وتعجف السمينة ولم يوفر جزازها وألبانها غضب عليه صاحب الأجر. فقال معاوية: ماشاء الله[4]، فانظر كيف حث أبو مسلم الخولاني معاوية ﷺ على الاهتمام بأمر الرعية وحذره من التهاون أو التفريط في إصلاح شؤونهم وذلك عن طريق ضرب المثل تقريباً للصورة وتشبيهاً للحال[5]، وهناك موقف عملي آخر لأبي مسلم الخولاني مع معاوية أيضاً، وذلك عندما صعد معاوية المنبر - وكان قد حبس العطاء - فقام أبو مسلم وقال له: لم حبست العطاء يا معاوية؟ إنه ليس من كدك ولا من كد أبيك، ولا كد أمك حتى تحبس العطاء. فغضب معاوية غضباً شديداً، ونزل عن المنبر، وقال للناس: مكانكم، وغاب عن أعينهم ساعة ثم عاد إليهم فقال: إن أبا مسلم كلمني بكلام أغضبني، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الغضب من الشيطان، والشيطان خلق من نار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليغتسل[6]»** وإني دخلت فاغتسلت، وصدق أبو مسلم: إنه ليس من كدي ولا كد أبي، **فهلمّوا إلى أعطياتكم[7]**.

---

(1) تاريخ الطبري نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 303.

(2) المصدر نفسه، ص: 303.

(3) سير أعلام النبلاء (4/ 13) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 274.

(4) فضيلة العادلين من الولاة للأصفهاني، ص: 306.

(5) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 306.

(6) سنن أبي داود (4/ 249).

(7) مقامات العلماء بين يدي الخلفاء والأمراء، ص: 307، أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 307.

2 - الفرزدق يهجو معاوية:

هجا الفرزدق معاوية وافتخر عليه بنسبه وآبائه وذلك لغرض شخصي، حيث أعطى معاوية عم الفرزدق الحتات بن يزيد المجاشعي - وكان ضمن وفد أتي معاوية - جائزة أقل من الآخرين، ولما مات الحتات بن يزيد المجاشعي في الطريق، أخذ معاوية تلك الجائزة وردها إلى بيت المال، فقال الفرزدق يخاطب معاوية:

فلو كان هذا الأمر في جاهلية علمت من المرء قليل جلائبه
ولو كان هذا الأمر في غير ملككم لأبديته أو غص بالماء شاربه
وكم من أب لي يا معاوي لم يكن أبوك الذي من عبد شمس يقاربه

فما زاد معاوية على أن بعث إلى أهل الحتات بجائزته[1].

وقد ظفر معاوية بتقدير زعماء المسلمين من أبناء الصحابة رغم نقد بعضهم المرير له، وكان كثيراً ما يقول: إني لأرفع نفسي أن يكون ذنب أعظم من عفوي، وجهل أكثر من حلمي، أو عورة لا أواريها بستري، أو إساءة أكثر من إحساني[2]، وكان أحياناً يتمثل بهذه الأبيات:

تعفو الملوك عن الجليل من الأمور بفضلها
ولقد تعاقب في اليسير وليس ذاك لجهلها
إلا ليعرف فضلها ويخاف شدة نكلها[3]

3 - أم سنان بنت خيثمة في مجلس معاوية:

كانت أم سنان بنت خيثمة المذحجية من أنصار أمير المؤمنين علي ﷺ، وفي عهد معاوية قدمت على دمشق واستأذنت عليه فأذن لها، فانتسبت له فعرفها، وأمرها بالجلوس، فلما جلست قال لها: مرحباً يا ابنة خيثمة، ما أقدمك أرضنا وقد عهدتك تبغضين قومي، وتحضّين عليّ عدوي؟ قالت: يا أمير المؤمنين، إنّ لبني عبد مناف أخلاقاً طاهرة، وأعلاماً ظاهرة، وأحلاماً وافرة، لا يجهلون بعد علم، ولا يسفهون بعد حلم، ولا يتعقبون بعد عفو، وإنَّ أولى النَّاس باتباع سنن آبائه لأنْتَ. قال معاوية ﷺ: صدقتِ يا أم سنان، نحن كذلك ثم سادت فترة صَمْتٍ، قطعها بسؤال لأمّ سنان يذكرها فيها بشعرها وتحريضها عليه، فقال لها: كيف قولك:

عَزبَ الرقاد فمقلتي ما ترقد والليل يُصدر بالهموم ويورد

(1) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 304 تاريخ الطبري (6/ 159).
(2) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 304 تاريخ الطبري.
(3) تاريخ الطبري (6/ 253).

يا آل مذحج لا مُقام فشمّروا إن العدوّ لا أحمد يقصد
هذا عليٌّ كالهلال تحفُّهُ وسْطَ السماء من الكواكب أسعد
ما زال مُذْ شهد الحروب مظفراً والنّصرُ فوق لوائه ما يُفقد

وكانت أمّ سنان ـ رحمها الله ـ تصغي لما ينشده معاوية من شعرها، ولما انتهى قالت له: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين، وإنّا لنطمع أن تكون لنا خلفاً بعده، فمثلك جدير بذلك وقبل أن يتكلم معاوية بكلمة، قال رجل من جلسائه: كيف يا أمير المؤمنين، وأنا أحفظ من شعرها خلاف ما تقول لك الآن فهي القائلة:

إما هلكت أبا الحُسين فلم تزل بالحق تُعرف هادياً مهديا
فاذهب عليك صلاة ربك ما دعت فوق الغُصون حمامة قمريا
فاليوم لا خلف يؤمّل بعده هيهات نمدح بعده إنْسِيا[1]

عندئذ قالت أمُّ سنان وعلائم الحزم والصِّدقِ ترتسم على وجهها وهي تعرّضُ بجلسائه: يا أمير المؤمنين، لسان نطق، وقول صدق، ولئن تحقّق فيك ما ظننّا فحظُّك الأوفر، والله ما ورّثك الشَّناءة ـ البغض ـ في قلوب المسلمين إلا هؤلاء ـ وأشارت إلى بعض جلسائه ـ فادحض مقالتهم، وأبعد منزلتهم، فإنك إن فعلت ذلك ازددت من الله ﷻ قرباً ومن المسلمين حباً. وتعجب معاوية مما تقول، فقطع عليها مقالتها قائلاً: وإنّك لتقولين ذلك يا أم سنان؟

قالت: سبحان الله يا أمير المؤمنين، والله ما مثلك مدح بباطل، ولا اعتذر إليه بكذب، وإنك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلوبنا، كان والله عليٌّ رضي الله عنه أحب إلينا منك إذ كان حياً، وأنت أحبّ إلينا من غيره إذ أنت باق. فسألها معاوية: وممن أنا أحب إليكم ما دمت باقياً؟ فقالت: يا أمير المؤمنين، أنت أحبّ إلينا من مروان بن الحكم وسعيد بن العاص. قال: وبم استحققت بذلك عليهما؟. قالت: بحسن حلمك، وكرم عفوك[2]. وبعد حديث انتهى الحوار، سألها: ما حاجتك الآن يا أم سنان؟ فسألته حاجتها في حفيدها بالمدينة أن يفك أسره، فلبى معاوية طلبها، وأكرمها ووصلها وردّها إلى المدينة، وقد قضيت حاجتها، وكان لسانها يلهج بالدعاء لمعاوية[3]. هذه أمُّ سنان المذحجيّة، إحدى نساء عصر التابعين وممن فُطرت نفسها على الصَّفاء والصَّراحة، وأوتيت شطراً من البلاغة والحكمة ما جعلها في سجل

(1) العقد الفريد (2/ 108)، نساء من عصر التابعين، ص: 275، 278.
(2) العقد الفريد (2/ 108)، تاريخ دمشق نقلاً عن نساء من عصر التابعين، أحمد جمعة، ص: 278، شاعرات العرب، ص: 176، 177.
(3) نساء من عصر التابعين، ص: 280، شاعرات العرب، ص: 176، 177.

ناصع يحكي خلودها وخلود أمثالها[1] ولم تكن أم سنان المذحجية وحدها التي كانت تعبر عن رأيها، وتتكلّم بوضوح عن معتقداتها، بل كانت مثيلاتها كثير مثل: الزرقاء بنت عدي[2]، وأم الخير بنت الحريش[3]، لقد كان معاوية ﷺ، يجرّىء الناس على الصدع بمعتقداتهم وآرائهم، ويشجعهم على حرية الرأي والتعبير وحق النقد والمعارضة السلمية.

(1) نساء من عصر التابعين، ص: 280.
(2) المصدر نفسه، ص: 296.
(3) المصدر نفسه، ص: 148.

obeikandl.com